الثروة

رواية

محمود قاسم

الكتاب: الثروة (رواية)

الكاتب : محمود قاسم

الطبعة: ٢٠١٨



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

قاسم ، محمود

الثروة (رواية)

/ محمود قاسم – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي:٣- ٥٧١- ٤٤٦- ٩٧٧- ٩٧٨

.. ص،.. سم.

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩١١٧

الثروة





قبل الميلاد.. قال أبى لأمى فى ليلة زفافها:

– علينا أن ندفع ديون هذه الشقة وأن نسعى بعد ذلك إلى تكوين ثروة يمكننا بها أن نعيش سعداء منها نحن وأبناؤنا وأحفادنا.

لم يحدد أبى ليلتها قيمة الثروة التى عليه أن يسعى للحصول عليها، لكنه ضاجع عروسه بنهم فقد كان يرى أن الأبناء يمكنهم أن يأتوا لآبائهم بثروة كبيرة (وهم أيضاً ثروة)

عندما ولد أخى لم يكن أبى قد سدد الكثير من ديونه، ولكن حساب هذه الديون أزادت قيمتها.. فقد تعبت أمى كثيراً وهى تلد كما أنه اقترض الكثير من المال كى يقيم لابنه مراسم استقبال طيبة.. علينا أن نصرف.. لا عليك.. فيوما ما سوف نحصل على ثروة.. ولد أخى ضعيفاً، استطاع أبى أن يسدد بعض ديونه خلال عدة سنوات.. ولأن أخى عليل دائماً فقد ذهبت به أمى إلى الأطباء.. كثير من النقود يحتاجها وامرأة عليلة لا تود أن تنجب مرة ثانية لما رأته من أهوال فى ولادتها الأول.. بعد عدة سنوات أظنها إحدى عشرا قرر أبى أن يجرب مرة أخرى.. لقد سدد ديونه كلها.. وعليه الآن أن يأتى بالوريث الثانى لهذه الثروة التى ستحل علينا يوماً ما.. الخطوة الأولى هى أن ينتهى من سداد ديوننا.. ودائماً الصفر نقطة انطلاق.. الانطلاق هنا يبدأ من وليد جديد يؤازر أخاه.. فى ليلة مبهجة تعرى الزوجان وتضاجعا طيلة الليل. بعد تسعة أشهر كان الرجل قد أعد عدته لاستقبال الوريث الثانى لثروة كثيرة سوف تجىء يوماً..

هذه المرة ولدتنى أمى بسهولة.. لم تتألم كثيراً مثلما فعلت فى المرة الأولى. قبل أن يلفنى الطبيب فى لفافة صغيرة رأيت أبى يُخرج مبلغاً كبيراً كى يدفع ثمن الأتعاب وأجرة الغرفة وإكراميات.. كان يردد فى الردهة أن السعد قد حل بالأسرة هذه المرة. فهو يدفع نقوداً ليست من جيوب الآخرين ومع هذا أصبح أبى صفر اليدين صبيحة اليوم الثامن لميلادى.. فى هذا اليوم ذهب إلى من يعطونه وطلب من جديد.. كى يشترى أغذية وملابس وهدية لى.. لم تعد أمى تسأله من أين يأتى بالنقود فهى تعرف أنه يجيد التصرف.. أول لوحة استطعت أن أراها عندما عادت بى أمى من المستشفى هى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).. قال أبى:

– لقد جاء البنون.. وسوف يأتى المال يوماً ما، لا تقلقى.. فهذان الصغيران سوف يأتيان لنا بالثروة.

الفصل الأول



عشرة أعوام.. تجاوز أخى العشرين من عمره.. فشل فى الدراسة عدة سنوات متعاقبة.. ضعيف البنية مثلما نزل من بطن أمى.. لم يكن أبى يرى فى تعليم ابنه فائدة.. سوف يعلمه مهنة يرتزق منها.. كان أبى قد بدأ فى ادخار مبالغ صغيرة منذ أن بلغت من العمر عاماً.. (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).. قال:

– سوف يسافر الولد إلى أية بلدة يأتى لنا منها بالنقود.. الشطار هناك يتحولون من أقوام فقراء إلى ملاك لأكبر المؤسسات والثروات.

لم تبال أمى أول الأمر برغبة أبى.. كثيراً ما تكلم لكن الثروة لم تجىء حتى الآن. (طول العمر يبلغ الأمل). بدأت ترتاب فى الأشهر الأخيرة وهى تراه يسافر إلى أكثر من مكان داخل البلدة برفقة ابنه.. قال إن الصبى سيرحل إلى مكان يمكنه فيه أن يعمل كى يأتى بالثروة.. فقط عليه أن يرحل إلى هناك ليكسب كثيراً.. (يمكنك يا صغيرى أن تبدأ كعامل بناء.. أو جامع قمامة لتتحول خلال سنوات إلى أكبر ثرى فى البلاد) ويمكنك أن تصبح يوماً عضواً فى برلمان، أو رئيساً لحزب، أو ربما لدولة. فقط ضع فى ذهنك أنك ستحقق ثروة)..

بدأت النقود التى ادخرها تنفد من جديد.. مصاريف جواز سفر.. إجراءات هجرة.. أوراق.. بطاقات هوية.. نقود كثيرة توضع فى الأدراج لتسهيل الإجراءات. تنهد الرجل يوماً وقال لزوجته أن نقوده قد نفدت، وأن عليه أن يبحث من جديد عمن يقرضه.

لم يكن وقتها قد أنهى شيئاً يذكر من هذه الإجراءات.. ذهب كثيراً مع ابنه: وزارة الداخلية، وزارة الخارجية، وزارة الحربية.. الولد ضعيف ومنهك القوى وبه عاهة شبه مستديمة ولا يمكنه أن ينضم إلى الخدمة العسكرية، عليه أن يعرض نفسه على لجنة، وإجراءات اللجان طويلة ويمكنك أن تأتى ومعك النقود لإنهاء بعض الإجراءات.. وهناك رئيس للجنة الفحص التى يمكنها أن تتجاوز عن الكثير من الرسميات كى يمكنك أن تعفى ابنك من الالتحاق بالعسكرية، وكى يتمكن من الرحيل إلى بلاد الأثرياء.

قالت أمى لأبى: هذا الأمر يحتاج للكثير من الجهد والأموال والمخاطر..

قال بروحه المرحة: لا عليك. كل شىء يتدبر.

عندما عارضته مرة ثانية قال إنه يفكر بنفس أسلوب العلماء المحنكين فى الاقتصاد.. كى يمكنك أن تحقق ثروة فعليك أن تمتلك أصولاً ثابتة وأخرى متغيرة.. الولدان أصول ثابتة لا تقدر بثمن.. والأصول المتغيرة يمكن تدبيرها.. وعلى قدر هذه الأصول يمكنك أن تحقق بشطارتك.. لكن أية أصول تنفع للحركة؟

فى اليوم التالى، ذهب الرجل كى يستلم شهادة إعفاء ابنه من التجنيد "غير لائق طبياً"، أقام فى المنزل حفلاً بسيطاً.. فى المساء ضاجع أمى فرحاً.. كنت أذاكر فى الغرفة المجاورة وأنا أسمع ضحكاتهما، همسهما. خرج بعد ذلك إلى الحمام ثم طلب منى أن أنام. الآن الوقت متأخر، نمت.. ولا أعرف هل عاد ليفعل أشياء أخرى أم أنه اكتفى؟

منذ اليوم التالى بدأ أبى فى الذهاب من جديد مع أخى إلى مكاتب عديدة لاستخراج شهادات.. المهنة لا تهم.. ستعمل هناك زبالاً أو أميراً.. لكنك ستعمل.. التمغات.. والتوقيعات.. والأختام كلها ليست مجانية.. بدأت حصيلة الديون تزداد.. نسى أبى الأرقام لكن اهتمامه وحماسه لسفر أخى كان زائداً عن الحاجة.. أمى تعترض قائلة أن ابنها لن يستطيع أن يواجه عالماً غريباً عنه.. قال إن عليها أن تسعى كى تعلمه لغة البلاد التى سيسافر إليها.. (من تعلم لغة قوم..)

فى الصباح يذهب أبى وأخى إلى المكاتب لإنهاء الاجراءات.. فى المساء يجلس أخى الضعيف البنية أمام أمى تعلمه كيف يقرأ ويتكلم.. يجلس أمام التليفزيون.. يستمع إلى الإذاعة.. يحضر له أبى المجلات ليقرأها.. لم يتقدم كثيراً خلال الأشهر التى انتهت فيها الإجراءات.. كل ما تعلمه حين استقل سفينته الضخمة هو أن يقول للآخرين.. (كيف حالك.. أود أن أعمل.. شكراً)..

فى إحدى أمسياتهما الهادئة سألتى أمى أبى وهى تداعبه:

– لم لا تسافر معه.. أو لم لا نسافر جميعاً ونحقق الثروة هناك؟

ظل أبى شارداً بعض الوقت وهو لا يعرف إجابة ولم يرد.. تحدث معها فى تلك الأمسية أحاديث كثيرة ليس بينها رداً واحداً للسؤال.. بعد عدة أيام تخمرت الإجابة بكاملها فى ذهنه فقال لها:

– إذا نجح الصغير هناك فسوف نذهب إليه.. لكننى أعتقد أنه سيحقق الكثير من الثروة وسيعود بها ونحقق لأبنائنا وأحفادنا معيشة طيبة..

بعد دقائق أخر قال أن علينا ألا نترك بلادنا إلا لنعود إليها (ونحن لا نريد أن نجتث أنفسنا من تربة هذه الأرض).

فى الصيف كنا نذهب كالعادة إلى الشاطىء.. اعتاد أبى أن يصحب أسرته إلى مكان هادىء بعيد عن الأعين كى يتمكن أفرادها من التصرف بحرية.. تود أمى أن ترتدى لباس بحر وتداعب المياه كما تشاء، ثم تسترخى فوق الرمال أمام أعين زوجها التى لم تعد ترقبها كثيراً.. بينما ولداه يسبحان وامرأته ممددة تحت الشمس تقرأ كتاباً.. كانت عيناه تحلقان فى الفضاء كأنهما تخترقان المسافات عبر البحر وتريان الثروة قادمة فوق سفينة ضخمة محملة بالذهب والفضة والعملات المتعددة فى صناديق مكتوب عليها اسمه..

فى مرة جمعنا – ثلاثتنا - بين قدميه. أخذ يربت علىّ بيسراه وقال:

– انظروا خلف هذا البحر. على أى واحد منا أن يذهب هناك ويمارس شطارته ويعود لينقذنا من الفقر.. أمكما لن تذهب.. وأنا على أن أرعى الباقين هنا، وهذا الصغير أمامه زمن طويل.. ليس سواك..

وأشار إلى آخى.. انفجرت أمى ضاحكة.. لقد أجاب الرجل على سؤالها دون أن تعيد سؤاله

فى هذه الأيام قضت أسرتنا أياماً جميلة.. يصطحبنا أبى فى المساء لقضاء بعض السهرات فى أماكن هادئة.. تبدو لى كعروس جميلة بهية الحسن.. بسيطة.. يرتدى أبى ملابس السهرة وقد اصطحب طفليه وجلس يتحدث مع زوجته فى موضوعات عديدة.. يبدوان كأنهما عاشقان تعرفا

على بعضهما منذ فترة وجيزة.. فى إحدى تلك الأمسيات رأينا أبى يقوم من مكانه مهللاً.. اقترب من رجل فى مثل عمره تقريباً.. تعانقا بحرارة أشار أبى إلينا فبدأ الرجل يصافحنا.

– صديق عزيز.. رحل عن البلاد منذ سنوات ليعود وقد حقق أمله..

نظر إليه كى يؤكد الرجل ما يقول.. قال الصديق:

– بالطبع.. خمسة عشر عاماً هناك.. زوجة جميلة.. وثروة طيبة.

أشار الرجل إلى امرأته الجالسة فى أحد المقاعد المجاورة.. قامت لتصافحنا.. اقترح أبى دعوة زميله لتناول المشروبات.. جلسنا – نحن الستة – معاً.. قال الصديق إن البقاء هنا نوع من الخمول.. عليك أن تقتل كل مشاعر الحنين والشوق والاغتراب كى تنجح هناك.. أن تعمل أى شيء..

كان أبى يشير إلى أخى وأمى بين كل عبارة وأخرى يقولها صديقه.

– عندما سافرت كان أبى مديوناً.. وأمى لا تودنى أن أسافر.. وأخوتى يؤكدون فشلى.. وبمجرد أن وصلت هناك نسيت أية ارتباطات لى ببلادى.. عملت كثيراً.. وكسبت كثيراً.

بدا فخوراً بنفسه.. لم يتكلم عن امرأته كثيراً.. اكتفت بالابتسام بين الحين والآخر.. بعد أن طال الحديث بدت أمى ملولة. وجدت أن من الأفضل أن تحادث الزوجة فى عدة أشياء عديدة وكثيرة عما يمكن أن يقابله ابنها فى رحلته.. فى طريقنا إلى المنزل بلغت رغبة أبى أوجها كى

يسافر ابنه إلى هناك. فى تلك الليلة جلس أبى على سريره يحلم برؤية ابنه جالساً فى منزل ضخم تحفه حدائق وحوله سور كبير عليه من الحرس.. هناك زوجة أكثر حسناً من زوجة صديقه.. أبناء أكثر ثقافة وخفة ظل.. يجلس على مقعد أمامه مكتب فاخر وقد تحول جسده النحيل إلى الامتلاء.. شاربه يتدلى تحت أنفه.. يرتدى ملابس فاخرة.. يصدر أمراً إلى عماله أن يملأوا صندوقاً بالعملات الذهبية ويرسلونها إلى أبيه.. أو بالأحرى ماذا سيفعل لو زادت هذه النقود مع وصول أول صندوق..

"أول شيء هو أن أبنى بيتا من بيوت الله.. بيت ضخم به الكثير من وسائل الراحة لمرتاديه.. أضواء.. وأثاث ممتاز.. سوف أحاول أن أجذب الناس لهذا المكان.. وإذا زادت النقود فماذا أفعل؟ – قال لزوجته يوما وهما على الشاطىء؟ – وسأقيم منزلاً كبيرا فى مكان كهذا.. تحفه الأسوار الضخمة.. لا يمكن لأحد أن يدخله. وسأكتب على الباب أن هذه مملكتى تخصنى وأبنائى وأحفادى وليس على أحد أن يدخلها سوى من أسمح له.. سأخصص جيشاً بأكمله يحمينى من المتطفلين.. وسأقيم لهذا الجيش معسكراً حول البيت.. سيحملون بنادق وسهاماً.. سيراقبون الشاطىء.. ويحاربون الغزاة.. وهؤلاء الذين يريدون أن يفسدوا علىَّ متعتى.. أما داخل المنزل فسوف أفترشه بأثاث فخم وسأعيش كأمير من أمراء ألف ليلة.. سأحضر الكثير من الحسان وسأجعل منهن حريماً لى.. ويتعرين وهن يدلكن ظهرى.. أو يحاولن إبعاد ذبابة دخلت من إحدى النوافذ.

عندما تضايقت زوجته من أحلامه قال:

"أكل هذا من أجل صنع مملكتى الخاصة؟.. لن أفعل هذا.. سوف أوزع الثروة التى سيرسلها الولد على الفقراء.. سأبنى للمعوزين منهم مساكن نموذجية يعيشون فيها.. سأفعل مثل تولستوى فى آخر حياته.. وسوف تقول عنى زوجتى إننى جننت".

قالت يومها إننى قد جننت فعلاً.

لم ينم أبى فى تلك الليلة.. جلس يتصور ما سيفعله بالثروة التى ستأتيه يوماً.. أما زوجته فقد غرقت فى سبات عميق.. تحلم أن تصبح مثل المرأة التى جاءت من الطرف الآخر من البحر.. ليست أكثر منها جمالاً.. ولكن روائح الثراء تفوح من كل شيء فيها.. رأت نفسها ترتدى نفس الملابس التى تخيلها زوجها يوماً إحدى أميرات ألف ليلة، وقد حامت حول زوجها وحدها وليس معها إحدى سوى ولديها: أحدهما عاد من السفر، والآخر اشتد عوده وتزوج.

تنبهت أمى من نومها وعادت لتحلم أحلاماً أخرى أكثر واقعية. بعد عدة أيام نسيت تماماً ذلك اللقاء وبدأت تعترض من جديد على أفكار زوجها فى سفر ابنها إلى الخارج.

ازداد إصرار أبى.. حاول الانتهاء من إعداد أوراق أخى "تأشيرة دخول بلاد الثراء.. لم يبق سوى أن يشترى تذكرة السفر" بدا هناك سؤال ملح. هل سيرحل بالطائرة أم بالسفينة؟.. تراكمت الديون.. سعر الباخرة

أقل، كما أن الفتى يمكن أن يخالط أقواماً كثيرين لعدة أيام قبل أن يصل إلى البلاد الغريبة. قال لأمي:

– يجب أن نعتني بغذاء الفتى حتى لا يظل هزيلاً. وحتى يمكن لأى صاحب عمل أن يوكل إليه ما يشاء.

بدأت الأم تعتني بطعام ابنها، لكن الفتى حين استقل السفينة كان نحيفاً جداً بل أن حاول أن يخفى سعالاً كان ينحر صدره..

بدأ العد التنازلى لرحيل الابن الأكبر.. أعدت أمى الحقائب.. انهال أبى عليه بالنصائح

"عليك أن تنام مبكراً.. لا تسهر كثيراً خارج المنزل"

يكتفى بهز رأسه.. ربما يسجل داخلها كل ما يقال.. أو لعله يسمعها بأذن لتخرج من الأذن الأخرى.

أعدت أمى كل الحقائب بعد أن اشترى تذكرة السفينة.. سيسافر فى التاسعة مساء.. عندما عاد أبى ومعه التذكر انهال على ابنه تقبيلاً وأخذ يخرج من فمه مجموعة جديدة من النصائح.

بدا كأن الفتى سيذهب بالتذكرة إلى حفلة مسائية لإحدى دور السينما وسيعود فى منتصف الليل لينام فى سريره ويتغطى بنفس الأغطية، لكن الحقائب ثقيلة. شعر بثقل الحمل الذى عليه فى آخر ليلة له بالمنزل. جلس الوالدان شاردين.. الأم تبكى من فترة لأخرى.. والأب يفكر فى معان عديدة حول الثروة.. إن سفر ابنه يعد مغامرة لا طائل منها.. وهذا

أمر يعد بحد ذاته فقدان لثروة أخذ يصرف عليها الكثير طيلة عشرين عاماً.. قالت أمي وهي تجفف دموعها:

- نومه هنا تحت سقف أبويه أفضل من كل ثروات الأمم..

غالب أبي رأيه فقال:

- سيعود يوماً وقد اشتد عوده وتعلم المسئولية وقد حقق لنا أشياء نأملها.. يومها سننسى كل الإرهاقات التى سببتها لنا الديون، وكل الآلام التى تصيب أبوين يرحل عنهما ولدهما، علينا أن نعتبره متزوجا فى مدينة ليست بعيدة جداً..

فى تلك الليلة نام أخي بجانبي قرير العين.. لا يشعر بأية مسئولية ملقاة على عاتقه.. لعله يحلم بأشياء أخرى غير التى حلم أبوه يوماً.. لم يحلم أبي فى نفس الليلة لأنه بقى وأمي ساهرين يتحدثان حتى الصباح

فى الخامسة مساء ذهب ثلاثتهم.. بقيت فى المنزل.. قبلت أخي وأنا أبكي. لم أكن أعرف إلى متى سيدوم الرحيل.. لكن دموع أمي جعلتني أبكي.. نظر الفتى إلينا فى بلاهة وابتسم كأنه يحاول أن يسرى عن الجميع.. ربت على ظهرى ثم حمل حقيبته الصغيرة، وخرج. وقفت فى الشرفة أرقب السيارة التى تقلهم.. لم يرفع إلي عينيه.. ولم ينظر إلى بعض الجيران الذين وقفوا فى شرفاتهم يحاولون توديعه.. صعد والداه إلى السيارة وذهبوا.

قالت أمي إنها بكت عندما ودعته.. لا أعرف هل بكى أخي أم أنه قابل نحيب أمه بنفس الابتسامة.. أخفى أبي دموعه وهو يلقى عليه

النصـائح.. كـان أخـى – عنـدما صـعد إلـى السـفينة – يعـرف تمامـاً أنـه سيذهب فى رحلة قصيرة وأنه سينام مع أخيه فى نفس الليلة.. تعلم من لغة الـبلاد التـى ذهـب إليهـا ثـلاث عبـارات "كيـف حالـك.. أود أن أعمـل.. شكراً".

لـم يتحـرك الزوجـان إلا بعـد أن تحركـت السـفينة فكـت السلاسـل.. تحركت حاملة فوق متنها فتى لم يبلغ العشرين من عمره بعد.. على سيماه بعض علامات البله.. راحلا إلى بلاد بعيدة.. يحاول أن يسـدد ديون أبيـه.. ويحقق لأسرته كلها ثروة.

الفصل الثانى



أخيراً.. بعد عشر سنوات تمكن أبى من تسديد كل ديونه.. لم يكن يتصور أن العبء سيكون ثقيلاً هكذا، وأن المبالغ التى ستتعدد مصادرها اقترض من بنك وبعض الأقارب، وبعض الزملاء والأصدقاء، شعر بالعبء يزداد عندما مات أحد أصدقائه المقربين قرضه مبلغا كبيرا.. ترك أسرة من خمسة أفراد. بدأ الحال ينزل شيئا فشيئا بعد رحيل عائلها.. شعر أبى بأن فى عنقه دين ثقيل وعليه أن يسدده.. أخذ يقترض بدوره من هنا وهناك ليدفع لأرملة صديقه.. بدأ يهتم بأحوال الأسرة أكثر من جانب الماديات.. هذا الطفل مريض. ذاك يود تشجيعا فى مذاكرة دروسه. عاد أبى فى ساعة متأخرة من الليل فصاحب فيه أمى غاضبة:

- هل انتقل الاهتمام من أولاد صديقك إلى زوجته؟

قالت إنه لا يمكن أن تتحول الأمور إلى صورة مشبوهة مثلما يحدث.. أرملة جميلة ومعها صديق زوجها الراحل فى ساعة متأخرة من الليل. خافت أمى أن يفكر أبى فى إنجاب ابن ثالث كى يتمكن من إعداد العدة لترحيلى لأساعد أخى فى إحضار الثروة.. قال زوجها:

- لا يوجد فى الدنيا امرأة غيرك.

إنها تعرف أنه لم يعد الرجل القوى الممارسة مثلما كان فى أول ليلة تزوجا فيها.. العزيمة تملؤه الثروة تشع فى رأسه.. نام يومها بكل ما يملك من قوة، لكن ابنه ولد هزيلاً. عندما كرر نفس المحاولة من أجلى جئت

أكثر ذكاء وأشد قوة.. لكننى من وقت لآخر أشعر ببعض التعب فى صدرى.. قالت لزوجها:

- سدد ديونك لأبناء صديقك وكفاك أعمالاً خيرة.

لكن المبلغ الذى اقترضه أبى من صديقه كان كبيراً.. وعد أن يسدده على فترة طويلة.. اكفهر وجه أمى وهى تتصور كم من الليالى سيذهب الرجل ليسدد ديونه.. قالت تداعبه:

- هل يجب أن تسدد الدين بأسلوبك الخاص؟

فى تلك الليلة غضب أبى كثيراً وقال إن عليها ألا تداعبه بمثل هذه الأقاويل.

لم يكف أبى عن زيارة منزل صديقه. أو كما ترى أمى منزل أرملة صديقه.. ومع أنها كفت عن الحديث مع زوجها عن هذه الزيارات المتكررة إلا أنها تعرف تماماً أن زوجها لا يمكنه أن يفعل شيئاً مما تقصد حتى لو كانت زليخة.. عاشت وسط هواجس غريبة فى تلك الأيام.. زوجها فى واد بعيد عنها.. لا يفكر معها مثلما اعتادا.. ولا يطلب مشورتها كثيراً.. لم تعد تشاركه الجوانب القانونية للعديد من الصفقات الفاشلة التى يعقدها.. أحياناً يشعر أنه قد اقترب من الهاوية.. وأحياناً أخرى يتخيل أنه اقترب من تسديد كل ديونه لكنه مع ذلك كان هادئاً.. لم يكف عن مغازلة امرأته.. ولم يكف عن الذهاب إلى الشاطىء فى كل صيف.. ألعب أنا وحدى فوق الرمال وترقد أمى تحت أشعة الشمس تسعى إلى تلوين جسدها البرونزى.. تقرأ كتاباً. يشرد الرجل ناظراً إلى ما وراء المياه كأنه ينتظر رسالة تحملها

إحدى السفن.. أو تسقطها فوقه إحدى إناث الحمام الزاجل أو يرميها من السماء أحد الصواريخ العابرة للقارات.. أو تخرج من البحر فى إحدى الزجاجات.. أعتقد أبى يوماً أنه يمكنه أن ينهى ديونه من خلال بعض طرق الكسب السريع ورقة يانصيب.. لا يمنع الأمر من دخوله إحدى صالات اللعب بمبلغ صغير.. يخرج فى كل مرة خاسراً. لم يفقد ابتسامته يوماً. يلوم زوجته لأنها بدت مثل النساء اللائى فى سنها، تميل إلى الثرثرة.. والجلوس فى المنزل والعناية بشئون ابنها.. أصبحت بدينة شيئاً ما..

رفع أحد الدائنين دعوى على أبى كى يسدد مبلغاً اقترضه منه.. بدا أبى خاوياً فى تلك الفترة.. ذهب إلى صديقه وعرض عليه أن يعمل فى مكتبه عدة ساعات يومياً لعام بأكمله.. وافق الرجل على مضض وسحب دعواه قال إن المبلغ الذى اقترضه أهم من العمل.. بعد ستة أشهر نجح أبى أن يوفر مبلغاً وسدده لصديقه وقال له وهو يخرج من مكتبه:

– اعتبر الأيام التى عملت فيها معك بمثابة فوائد لديونى طرفك..

ولم يقابل الرجل بعد ذلك قط.

شعر أبى بمدى المسئولية عندما دخلت أمى المستشفى.. رقدت هنا أكثر من عشرين عاما.. البيت خاو إلا من الرجل وابنه.. القذارة زحفت على كل مكان فى الشقة.. بعد أن اتسخت كل الأطباق والأوانى بدأ يشترى الأطعمة الجاهزة. يذهب لقضاء الكثير من الوقت مع أمى.. قدم أكثر من طلب للعمل كى يحصل على معونة تمكنه من علاجها. بعد أن خرجت أمى رقدت فى المنزل فترة قبل أن تتولى أعباءه من جديد.. عندما

شفيت كانت ديون أبى قد بلغت رقماً كبيراً. كتب يومها رسالة لأخى كى يرسل لها مبلغاً من الثروة، وعليه أن يرسل بقية الثروة فيما بعد على راحته. لم ينقذ الموقف فى منزلنا إلا ذلك العرض الذى قدمه أحد أساتذة الجامعة لأمى بترجمة مجموعة من الكتب. انهمكت المرأة ليلاً نهاراً للانتهاء من بعضها.. كان أبى يساعدها. ويقوم بنسخ ما تترجم.. استطاعا خلال نصف الفترة المحددة أن ينتهيا من الترجمة.. استلم أبى المبلغ فسدد بنصفه جزءا كبيرا من ديونه وقام بشراء مجموعة من الهدايا لأمى التى لازمت فراشها مرة ثانية.. استمر ابى فى البحث عن أعمال أخرى يقوم خلالها بمساعدتها وتوفير الراحة لها

بدت أمى أكثر حساسية وعصبية لكنها أحياناً تبدو هادئة تبكى وتشكو.. قالت لو أنها أنجبت فتاة لساعدتها فى هذه المحنة. ولدها سافر فيما وراء البحار والثانى يجلس يستذكر والرجل مشغول بمشاريعه الخاصة، وهى تعانى من آلام عديدة. لم يعد للأشياء نفس مذاقها البسيط.. قالت لزوجها:

– أخاف أن تأتينا أموال فنفقد حلاوة الأشياء من الأفضل ألا يرسل ابننا شيئاً.

مط الرجل شفتيه وقال:

– بدأت تشعرين بالعجز قبل أوانه.. فلنخرج.

فى تلك الليلة خرجا معاً إلى أماكن لم يرتاداها من قبل.. سمعت وفيما بعد أنه حاول تقبيلها وسط الشارع.. وأنه حاول تقليد المراهقين.. عادا سعيدين سألها فى غرفتها.

– لماذا لا نحاول أن نأتى بفتاة.

أمى تعرف أن سن الحمل قد فاتها، مع ذلك شاركت زوجها متعته كأنهم يفعلان هذه الأشياء لأول مرة.. لم تحمل المرأة.. لا بفتاة ولا ولد.. ولم تتكرر هذه الأشياء كثيراً فيما بعد.. كان عليها أن تعمل من جديد. أن تقوم بترجمة كتب وتوفر لمنزلها راحات جديدة.. قالت لزوجها أن الستائر والأثاث تحتاج إلى تغيير. وأن عليهما أن يوفرا مبلغاً طيباً من أجل هذا الأمر.. لايزال الرجل مديناً بجزء كبير من المال. لايزال يزور أرملة صديقه من فترة لأخرى ويعطيها بعض المال. ومع هذا وافق امرأته أن يقوم بتجديد العديد من أثاث المنزل.

استغرق الأمر كثيراً من الوقت، والمال، والتعب.. أمى تود أن تصبح شقتها جنة، تطلب من العمال أن يعملوا بأمانة. تساعد بعضهم.. تنظف، تقترح، لم تكن صحتها على ما يرام، بدت سعيدة وهى ترى ديكوراً جديدا يكسو بيتها.. أحاول مساعدتها فترفض.. بعد أن انتهى من تجديد ديكور المنزل وبعض الأثاث جلس أبى من جديد يجمع ما عليه من ديون.. نفخ ليلتها وقد بدا على ملامحه الكثير من الانزعاج.. قال لامرأته وهو يقبلها:

– عليك ألا تمرضى أو تحاولى ذلك.. عليك أن تترجمى خمسين كتاباً على الأقل كى نخرج من هذه المحنة.

فى صباح اليوم التالى بدأت أمى فى أعمال الترجمة. طلبت منى أن أعاونها لأول مرة.. تملينى فأكتب ويتولى أبى المراجعة والتصحيح والنسخ على الآلة الكاتبة. فى أمسية كل خميس يجمع كتاباً بأكمله انتهينا من

ترجمته خلال أسبوع، ثم يحسب رصيده..استطاعت أمى خلال ستة أشهر أخرى ترجمة أكثر من عشرين كتاباً ساعدت ايراداتها فى تخفيف الأزمة.. لكن أمى رقدت فى سريرها يوم قررت أن تستريح وهى تنظر إلى الديكور الجديد للمنزل الذى بدا فى عينيها أنه يحتاج إلى تجديد آخر..

عندما رأى أبى درجاتى صمم ألا أحاول مساعدتهم فى أى شىء..

قالت أمى:

– إذا كنت تنتظر ثروة من ابنك الذى سافر فعليك أن تعلم ابنك الثانى كيف يستغل هذه الثروة الاستغلال الأمثل.. تعلمه الحسابات وأعمال البنوك والديون والتجارة. عليه أن يجتهد كى يلتحق بكلية التجارة وأن تساعده على قراءة علوم الاقتصاد والتنمية..

وبالرغم من حبى لعلوم الكيمياء والطبيعة والذرة والفضاء إلا أن أبى بدأ يوجهنى من جديد إلى قراءة ما أوصته به أمى.. لم أكن أرغب. كنت أراها أشياء ثقيلة.. أبى هو الذى يود أن يصنع ثروة ولست أنا.. سأتزوج من فتاة فقيرة وسأقول لها ليلة زفافنا "علينا أن ندفع ديوننا لكن ليس علينا أن نرسل أى من أبنائنا خارج البلاد ليأتى بثروة.. فدفء أحضان الأبناء أفضل من كل ثروات الدنيا".. قال أبى ساخراً من أفكارى:

– تعلم أن تكون واقعياً.

نظرت أمى إليه كأنها تود أن تقول له نفس العبارة. قرأ الرجل المعنى فى عينيها قال:

- أنا واقعى.. سوف تصل الأموال يوما وسوف نودع الفقر إلى الأبد..

تنهدت الأم وهى تقول:

- حتى الآن لم يصل شيء..

بدأ أبى يخفى كتب الكيمياء والطبيعة.. ويأتى لى بثروات الأمم. (كيف تصبح ناجحاً).. و(التطور الاقتصادى) و(النقود والبنوك).. لم أقرأ منها حرفاً واحداً.. كان يغضب منى قائلاً إننى بهذا سوف أبدد الثروة التى يمكنه أن يعمل على تنميتها هنا..

ومع ذلك وجدت أوراقى تنساب رغماً عنى إلى كلية التجارة.. فى الأجازة الصيفية قبل بدء الدراسة كنا كثيراً ما نذهب إلى الشاطىء.. حاول أبى أن يحثنى على القراءة فى كتب الاقتصاد حين يسبح معى محاولاً أن يسبقنى.. ونحن نتناول غداءنا تحت المظلة. اقتنعت أمى أن على زوجها أن يفعل حتى يمكننى التفوق فى دراستى فربما تأتى الثروة من التفوق أكثر من وصولها عبر البحار.. لكنها كانت ترى أن علي أن أقتنع أولاً بما سأدرسه وألا أتحادث حوله على موائد الطعام أو فى أوقات نزهتى حتى لا يصاب الولد بالملل والقرفِ. كما كانت تقول لأبى..

بدا أبى سعيداً وأنا أقول بعد عدة أشهر من التحاقى بالكلية إن هناك خطة طيبة يمكننا بها جدولة تسديد كل الديون وتوفير فائض طيب يمكننا الاعتماد عليه دون انتظار الثروة.. قبلنى وهو ينطلق فى الشقة فرحاً كأنه طفل حصل على هدية رائعة.. قبل أمى وهو يهلل:

– لقد أنجبت وأجدت التربية.. سوف يرسل الكبير الأموال. وسيجيد الصغير جدولة الديون وسنعيش منعمين.. وداعاً أيها الفقر.. لقد قتلناك إلى الأبد..

كان كل همى أن أسدد ديون أبى.. حتى تقل حدة التوتر فى المنزل.. إلا أن الرجل بدأ يشعر بالسعادة البالغة وهو يقترض من هذا ليعطى ذاك.. ويأخذ من البنك الذى يقدم فوائد أقل إلى بنك آخر يعطى أكثر.. يبدو مغتبطاً وهو يرى دفتر حساباته وقد رسم فيه خطاً بيانياً يوضح ارتفاع وانخفاض كمية الديون المتراكمة عليه.. قال لزوجته يوماً:

– سوف ترين هذا الرسم مرتفعاً مع فارق واحد هو أننا سوف ندين الآخرين. ولن نطلب منهم فائدة على ما أخذوه.

بدأ يناقشنى فى كيفية توفير مبالغ جديدة كى يمكن تسديد بعض الديون التى عليه أن يدفعها.. قلت له إن عليه أن يقيم مشروعاً تجارياً بسيطا يدر عائدا طيبا يمكن به أن يجدول ديونه.. تحمس الرجل فى أول الأمر للفكرة. لكنه بدا فاتراً بعد عدة أيام وأنا أعرض عليه الفكرة من جديد. أبى رجل متقلب. يتناقش اليوم بحماس موضوع ثم يعارض فكرته تماماً فى اليوم التالى.. تجده كئيباً ثم ينقلب إلى مهرج بين لحظة وأخرى.. كانت أمى كثيراً ما تتضايق من هذا السلوك.. لكنها اعتادت عليه.. علمته كيف يكبح شهواته ورغباته ازاء الكثير من الأمور.. الشىء الوحيد الذى لم تستطع أن تثنيه عنه ولا أن تقلل من حدته هو رغبته فى الشراء.. وأن عليه أن يفكر بواقعية أكثر.. لكن أبى لم يفقد الأمل فى أن هناك ثروة ستجىء من ابنه الذى يعمل فى الطرف الآخر من البحر. وأنه يجد الآن ويجتهد ويدخر كى يرسل لنا جميعاً هذه الثروة..

الفصل الثالث



مضـى عشـرون عامـاً بأكملهـا علـى رحيـل أخـى لأول مـرة مـا وراء البحار، كى يعمل على تكوين ثروة طيبة يرسل الجزء الأكبر منها إلى أبيه ثم يسعى إلى تكوين أموال أخرى، وعليه بعد ذلك أن يتصرف كما يحلو له.. الثروة لـم تصـل بعد، ربمـا أن المبالغ الوحيـدة التى وصـلت مـن هـذه البلاد هى ثمـن المظروف وورقـة مكتوب عليها خطاب يصـلنا بين فتـرتين طويلتين، وثمن طابع البريد..

عشرون رسالة فقط هى التى وصلتنا منذ رحيل الفتى إلى هناك. لم يعد فتى الآن، لقد تزوج وأصبح أباً.. يعيش كما روى لنا فى إحدى خطاباته الأخيرة فى منزل فخم تحيطه المزارع وبعض الحيوانات.. لم يذكر نوع هذه الحيوانات.. هل هى مجموعة من الكلاب التى تقوم بحراسة المنزل خوفاً من دخول اللصوص الذين يسعون لسرقة الثروة التى سيرسلها يوماً إلى أهله؟.. أم هى مجموعة من الفئران تسعى فى المنزل تأكل فيه كما تشاء وتحاول اختراق الصندوق الكبير المملىء بأوراق البنكنوت؟ أو لعلها حيوانـات أليفـة تهـوى زوجتـه تربيتهـا مثـل الكثيـر مـن السـيدات فـى هـذه البلاد؟ أو ربما أبقار ومواشى مثل تلك التى نشاهدها فى الأفلام؟ ترحل من مكان لآخر؟ لا نعرف لماذا لم يرسل الفتى صورة هذا المنزل؟ ولماذا لم يرسل صورة واحدة منذ أن رحل.. لا أعرف هل غيرت السنون الكثير من سمات وجهه أم أنه لا يزال يحمل تلك الملامح الفنية التى ارتسمت عليه حين استقل السفينة وهو يكرر وراء أمه: (كيف حالك.. أود أن أعمل.. شكراً)؟.

قال فى أحد خطاباته الأولى أنه لم يعثر بعد على عمل يناسبه.. وأنه يقيم بأحد الفنادق الفقيرة ويصرف القليل من النقود الباقية لديه..

قال فى خطاب آخر إنه قد نجح فى الحصول على عمل يمكنه من خلاله أن يدفع إيجار غرفة صغيرة قام بتأجيرها وأنه سيغادر المدينة خلال أسبوع ليلتحق بأحد الأعمال فى مزرعة بعيدة.. لم يذكر شيئاً عن الثروة التى عليه أن يحققها فى الرسائل الخمس الأولى التى أرسلها لأبيه..

"تحياتى لأمى.. تحياتى لأخى.. الجو هنا شديد المطر.. النساء جميلات. وأحياناً تأتى احداهن لترقد فى أحضانى.. لكن لن أدع أية امرأة تخدعنى"..

قال لأبيه فى إحدى رسائله أنه سوف يتزوج من فتاة جميلة. يمتلك أبوها أحد المحلات الكبرى فى المدينة، تعمل فى المزرعة كعاملة عادية.. يخرجان معاً. تأكد أبى عندما وصلته رسالة ابنه أن ولده قد تزوج فعلاً.. أخفى الرسالة عن زوجته بضعة أيام قبل أن تقول:

– أرسلناه ليأتى بالمال فإذا به يتزوج م فتاة من أهل البلاد..

قال الزوج:

– أعتقد أن ما فعله شيئاً طيباً.. سوف يجد له أهلاً جدداً يقونه وحشة الغربة..

ضحكت المرأة على سذاجة زوجها وقالت:

– بدلاً من أن يرسل لنا الأموال سيكتبها باسم ابن له وسنعيش أبداً فى فقر..

لم يذكر الفتى عبارة واحدة فى كل رسائله حتى الآن عن الثروة، ومدى ما حقق منها. فى أول الأمر تعلل أن على الفتى أن يكون نفسه وأنه لا ينتظر منه شيئاً.. ثم قال إنه يتعرض هناك لأزمات ولكنه حتماً سيجتازها.

عندما تزوج الفتى كتب لأبيه لأول مرة أن الزواج مكلف جداً فى تلك البلاد

(أنا هنا أحاول أن أنشىء نسلاً جديداً باسمك. هذا النسل من الأبناء سأجعلهم يكبرون ويتعلمون ويعملون فى كل البلاد ويتزوجون.. كل منهم يتزوج امرأة من جنسية مختلفة كى يكون لك أبناء وأحفاد فى كافة أقطاب الأرض.. سوف يحققون الثروات التى تسعى إلى تحقيقها.. لا تقلق يا أبت.. سوف تصلك الثروة يوماً.. طول العمر تبلغ الأمل.. ولا تنس أن الزواج نصف الدين).

نظر أبى إلى جثمان أمى قبل أن يضعوها فى القبر وبكى.. يحمل فى يده رسالة بها أوراق عديد أرسلها ابنه فى الصباح.. بعد رحيل الأم بعدة ساعات.. ممددة فى سريرها الجديد وحولها بعض النسوة يغسلن جسدها قبل أن يلفوها بآخر أثوابها حين قرع الباب ليدخل الساعى حاملاً رسالة قادمة من الجانب الآخر من البحر.. بالرغم من الدموع الشديدة التى انسابت من الرجل إلا أنه فتح الرسالة على عجل.. تصور المسكين أن الفتى عرف بمرض أمه وأنه قد أرسل مجموعة من الشيكات كجزء أول من الثروة.. شعر الرجل بالارتياح قبل أن يفض الرسالة ثم ما لبث أن رجعت إليه كآبته وهو يقرأها.. تحدث الفتى عن مولوده الجديد وكيف أن وفود

ابن جديد إلى الدنيا يكلف الكثير من النقود فى البلاد التى يعيش فيها. بينما يبكى الرجل زوجته، والمشيعون يضعون جثمانها فى القبر. طوى الرسالة التى فى يده وألقاها فى جوف المقبرة قبل أن يسدها الحانوتى بالطوب والأتربة.

لم يشعر الرجل بألم لوفاة زوجته – أو هكذا خيل لى – قدر ما شعر أبى بعد وفاة أمى.. أصبحت الشقة أكثر اتساعاً.. خيل لى أنه يعيش فى صحراء.. كان يسمع الصدى يطرق كل مكان بكل عبارة ينطقها.. جلس فى غرفته يقرأ القرآن ويقيم الصلوات.. لم يفكر أن يكتب لابنه عن رحيل أمه. قمت للمرة الأولى بالكتابة إلى أخى. كتبت عبارات أكثر وضوحاً:

(ليس من الإنسانية أن تترك أباك يتعذب ويتألم ويعيش على أمل أن ترسل أنت وزوجتك مبلغاً من المال مهما كانت قيمته.. إنه يسميها (ثروة).. ويشعر أنك لو أرسلت أقل قدر من هذه الثروة لاستطعت أن تعيد إليه بعض الأمل.. لكنك لم ترسل ولم تذكر شيئاً عن أحوالك المادية لنا.. نحن فى انتظارك. أمك تحييك من قبرها).

لم أكتب عن أمه سوى هذه العبارة القصيرة، جاءتنى رسالة سريعة شرح فيها كل ظروفه التى عاشها منذ أن رحل:

(عندما سافرت تركتك فى المنزل طفلاً صغيراً لا تدرك المسئولية ولم أكن أفهم كثيراً لماذا يرسلنى أبى إلى هذه البلاد. إنهم هنا يحتاجون إلى رجال أشداء يعملون ولا يكسبون.. وأنت تعرف أننى لست قوى البنية ولا شديد الذكاء.. وأننى جئت هنا كى أتحول إلى إبرة صغيرة وسط مصانع

هائلة.. وعليَّ بعد ذلك أن أرسل لأبيك مبلغاً كبيراً.. ربما كميات من الذهب تكفى سفينة ضخمة لحملها.. وأكتشف أن الأمر ليس سهلاً فى أول الأمر.. عليَّ أن آكل وأشرب لأعمل طيلة النهار وأنام ليلاً مثل الدجاجات المذبوحة. والأيام لا تمر والنقود لا تزداد.. ورسائل أبيك تجيئنى وتحثنى.. لكن ماذا تفعل الرسائل وسط مجتمع لا يعطيك أموالاً إلا بقدر ما تعمل؟.. يقولون هنا إن أصحاب الثروات –كما قال أبوك– هم فعلاً الذين بدأوا فقراء لكن لو أن أباك نفسه قد جاء هنا لمل المعيشة وفكر فى العودة.. ومع ذلك ادخرت مبلغاً كبيراً أقرب إلى ثروة يريد أبوك أن أرسلها له.. وجدت هذا بعد ثمان سنوات من رحيلى، لكن تصور أن عملية سطو مسلح قد سلبت منى هذا المبلغ بسرعة البرق، ولم أتمكن من الكتابة، لا لأبيك ولا لأمك.. ولا حتى لك لأنك كنت صغيراً.. أما الآن فالأمور تغيرت.. كان بودى أن أرسل لك مبلغاً تنهى به دراستك الجامعية وكى يمكنك أن تحضر هنا لأزوجك امرأة قشدة مثل زوجتى.. لكن أمك ماتت.. وأبوك يعيش وحده.. وهذا حافز جديد كى أرسل لك الأموال التى تطلبها.. لا تيأس، سوف تصلكم النقود يوما).

وصلت الرسالة بعد رحيل أمى بأربعين يوماً.. تنهد أبى وهو يقرأها.. شعرت لأول مرة بفتور فى عينيه وأنا أحدثه عن الثروة.. قال:

– لقد انتهيت من دراستك وربما سيكون لهذه الثروة التى ستصل يوماً معنى رائع لديك.. أما أنا فقد دفنت ثروت كلها يوم أن ماتت أمك.

بكى الرجل يومها بحرقة كما يفعل كل ليلة بعد أن أنام، أو بعد أن أحاول أن أوهمه أننى نمت.. وضع صورة زوجته الكبيرة فى الحجرة أمامه... يظل يرقبها طيلة وقته.. يكتب أحياناً كلمات غزل كأنه قد التقاها فى مقبرتها.. أجبرته يوماً أن يخرج معى إلى دور السينما.. قلت له ونحن نشاهد امرأة تتعرى فى الفيلم:

- ابنك الآن ينام مع امرأة كالقشدة. سوف يرسل لى إحداهن..

لم يضحك إلا عندما قلت له:

- سأبعث له أن يرسل لك أنت الآخر واحدة فليس هناك أحد أفضل من الآخر.

لكزنى بشدة وقال:

- يا لك من وغد!!

كتبت من جديد رسالة لأخى.. قلت إننى أنوى أن أتزوج.. فتاة جميلة كانت تزاملنى أثناء الدراسة.. ويمكننا ونحن الاثنان خريجان من كلية التجارة أن نجيد استثمار الأموال التى سيرسلها. قلت أن أباك سعيد جداً بالفتاة وأنها قامت بزيارتنا أكثر من مرة، وأنه قال يومها: "أنت فارس كأبيك. اخترت غزالاً أشبه بأمك".. قلت له ان خطيبتى أجمل فلكزنى بشدة فى جنبى وقال غاضباً:

- هل لأننى جاملتك تسوقها.. لم تكن هناك امرأة أجمل من أمك..

عندما وصلنى رد من أخى يهنئى باختيارى الطيب، كانت بطن زوجتى قد تكورت قليلاً إلى الأمام.. ظل أبى فى غرفته لا يبرحها.

وأعـدت زوجتـى نفـس الغرفـة التـى أعـيش بهـا بعـد أن رحـل أخـى وتحولت إلى غرفة نوم للعروسين.. قلت لزوجتى ليلة زفافنا.

– يسعى أبى إلى أن يكون امبراطورية.. مال وبنين.. المال فى الطريق.. فلنأت له بأحسن البنين..

تناكحنا بشدة طيلة الليل دون أن يصيبنا التعب.. دخل الرجل علينا بالفطور سألنى مداعباً:

– هل تصرفت جيداً كى تأتى بولى العهد؟

أرسلت رسالة عبر البحار أتحدث فيها عن التطورات الأخيرة فى الأسرة.. جاءنى الرد بعد أن رزقنا الله بأول فتاة يتحدث فيها أخى عن ظروفه الأخيرة:

لقد منيت بالفشل الشديد فى تجارة اشتركت بها أخيراً.. خسرت جزءاً كبيراً من نقودى.. كنت أنوى أن أرسل لكم عائد هذا المبلغ. لكن يبدو أن السماء لا تود أن تسعد أبى الآن.. بلغه تحياتى وقبلاتى.. وراءى التزامات كبيرة من أجل ولدى وزوجتى.. الأسرة تحييك..

قال الرجل:

– يبدو أن أخاك يهتم بنفسه أكثر. لا تحدثه عن أية نقود بعد ذلك.. فليرزقنا الله..

وصف أخى فى خطابه الطويل كيف يعيش وأن على أن أرحل إليه. فسوف تغدق الأموال علي كثيرا إذا فكرت فى السفر إليه.. تعال عامين

فقط وستعود ثرياً.. لم أشأ أن أجعل أبى يقرأ الخطاب حتى لا يتضايق.. بدا أنه قد فقد بعض الأمل فى وصول شىء من ابنه.. قال لزوجتى يوما:

- كنت أتمنى أن تنجبى غلاماً كى يسافر ليعوضنا جحود عمه.

قالت زوجتى:

- نحن لا ينقصنا شىء.. دخلنا يكفينا ولا نود سوى أن يلتئم شمل الأسرة!

فى الصيف الثانى لحضور الفتاة إلى المنزل ذهبنا إلى الشاطىء لأول مرة بعد وفاة أمى.. تمددت زوجتى مرتدية لباس بحرها فوق الرمال وأخذت تقرأ كتاباً.. بينما كنت أسبح فى المياه.. جلس أبى على حافة الشاطىء يرقب البحر من بعيد.. لم يحدثنى هذه المرة فى ماذا يفكر.. لعله كان يرى أمى هى التى تقرأ الكتاب.. لكنه كان يوليها ظهره.. خيل لى أن عيون ترى على بعد مسافات لا تصل عيوننا إلى رؤية مثيلتها.. عند الغداء تنهد مبتسماً ولم يتكلم كعادته.. لم أود أن أسأله عما به..

بعد أن عدنا من الأجازة وجدت رسالة تنتظرنى. قال أخى أن رسالة رقيقة قد وصلته مجهولة المصدر وأن كاتبها يعتب عليه عتاباً شديدا أنه لم يقم حتى الآن بأية واجب تجاه أبيه وأسرته.. وأنه قد مضى أكثر من ثمانية عشر عاماً على رحيله ولم يرسل وريقة واحدة، أو صندوقا صغيرا به بعض الذهب والفضة، وأنه قد حان الوقت الآن كى ينتبه إلى أنه قد أصبح يعيش فى استقرار وأن عليه أن يرسل صندوقين على الأقل باسم أبيه.. قال أخى أنه لا يعرف من كتب هذه الرسالة.. ليس الخط لأبيه ولا لى.. ولم يحدث

أن استلم رسالة من أى مكان بها نفس التعبيرات.. وقال أنه لن يهمه من كتبها إنما المخطوطة بها الكثير من الصدق..

"ولقد شرحت لك من قبل عدة مرات الظروف التى مرت بى.. والآن لن أكذب عليك.. ولن أماطلكم.. لقد فكرت ملياً أننى يجب أن أرسل مبلغاً كبيراً للغاية إليكم حتى ولو لم يكن هناك أحد يحتاج إلى الأموال أو ثروات.. لكن على الأقل لأن سبب رحيلى كان هو تحقيق الثروة.. وإذا كنت قد حققت بعض المبالغ الكبيرة.. إلا أنها ليست بالغة الضخامة بالصورة التى كان يصورها لى أبى.. لقد أخذنى يوماً إلى مطحن كبير وقال لى:

- هل ترى الدقيق الذى ينساب فى هذه الصوامع؟ عليك أن تحقق ثروات تنساب بنفس الطريقة.

وربما أن أبى كان يبالغ لكننى لن أنسى الدقيق وهو ينساب ذهبى اللون له بريق لامع. أحس الآن بعد كل هذه السنوات الطويلة التى عشتها هنا أننى لا يمكن أن أملأ غرفة واحدة بتراب الذهب.. أو بالفضة كما حاول أبوك أن يصور لى.. هنا يمكنك أن تكسب وتعيش.. لكن ليس كل البشر يمدون أياديهم إلى رمال الصحراء فتتحول إلى ذهب وفضة أو أوراق بنكنوت، وقد حاولت أن أجمع مبلغاً كبيراً نوعاً ما – يسمى عند أبيك ثروة – كى أرسله بإحدى أساليبى إليه فقابلت عدة صعوبات.. بعض الكساد فى بضاعتى يوماً.. تشاجرت زوجتى معى وقالت أنه ليس من حقى أن أرسل كل هذه المبالغ. ولدنا فى حاجة إليها مثل حاجة أبيك وأخيك وأسرته..

ولذا فإننى الآن أكون كمية جديدة فى صمت شديد وتكتم.. وسوف أرسلها باسمك أنت يوماً.. وتصرف بها كما تريد.. لا تقلق فسوف أسعى إلى أن تصلك الثروة قبل عدة أشهر"..

قال أبى أنه لن يرسل لابنه أية رسالة يحدثه فيها عن النقود منذ أن رحلت أمى، وأنه لم يعد يسعى كثيراً إلى تكوين أية أموال (لقد ضاعت الثروة الوحيدة يوم أن.. أمك..)

قالت زوجتى أنها لا يمكنها بالطبع أن ترسل رسالة إلى أخى دون علم منى أو حتى من حميها.. لم نهتم كثيراً – لفترة – بمن أرسل الرسالة، لكنى شعوراً عاماً بالارتياح ساد المنزل لعدة أشهر.. فلأول مرة نشعر جميعاً أن الثروة ستصل فعلاً..

الفصل الرابع

(أخوك مات.. البقية فى حياتكم. سيصلكم جثمانه على السفينة صباح الجمعة القادم فى تابوت وضعنا به عدة حقائب وصندوقين حسب وصية المرحوم. عزاؤنا عزاءكم).. زوجة أخيك.

نظرت إلى زوجتى وأنا لا أعرف هل أبكى أم أضحك. لم أره منذ ثلاثين عاماً.. منذ أن رحل.. لم أر له صورة واحدة غير تلك الصورة المعلقة فى الصالة الصغيرة، وقد بدت على صاحبها علامات البلاهة.. لقد مات أخى الوحيد. لم يعد لى أخ آخر لكن جثمانه سيصل وبرفقته الحقائب المليئة بالذهب والثروة التى وعدنا أن يرسلها منذ أعوام. لقد تحقق حلم أبيه أخيراً، لكن لا أعرف هل سيبكى أم سيضحك؟

قالت زوجتى:

- إنه جالس يصلى فى غرفته.. أعطنى البرقية وسأتصرف.

دخلنا إلى الرجل الذى نظر إلينا بشىء من الارتياب. قبلته زوجتى بحنان فقال:

- خيراً.. فى يدك وريقة لعل بها أخبار من أخيك..

قلت وأنا أحاول مغالبة أحزان ما فى داخلى:

- ولماذا عنه؟

- لأنه أرسل برقية من قبل!!

أخذ البرقية.. قرأها بسرعة ثم طواها وبكى.. بكيت معه.. لا أعرف هل مشاركة منى لمشاعره أم لأن أخى الفتى قد رحل؟. أو ربما حداداً على أيام الفقر؟. بكت زوجتى بحرقة أكثر.. ليس حزناً على صاحب الصورة المعلقة فى الصالة ولكن لأن العجوز قد فقد ابناً.. وهى تحب أبناءها بشدة وترى نفسها مكانه.

انتظرنا يوم الجمعة.. عادت الأشياء إلى مجاريها.. بدا أبى راضياً أن ابنه قد أوصى بدفن جثمانه فى أرض أجداده.. الدماء لا تتحول قط إلى مياه.. لقد جاء بجثمانه وثروته.. تحدثنا ثلاثتنا كثيراً عما سنفلعه بعد وصول الثروة. (سوف نبنى مقبرة رائعة تكريماً لأخيكم) ثم سنشترى قطعة من الأرض نبنى فوقها منزلاً ضخماً ذا حديقة. يحوطها سور مسيج بالأشواك وعليه حراس مسلحون كى نعيش فى سلام بعيداً عن البشر.. سنعيش فى عالم أشبه بذلك الذى حدثنا عنه يوما فى أحد خطاباته.. لقد صبرنا كثيرا وعلينا أن نحقق ما نتمناه.

فى يوم الجمعة ذهبنا إلى الميناء كى نستقبل الجثمان والحقائب.. قالوا إن السفينة ستصل عند منتصف النهار. ذهب أبي إلى الصلاة وعندما عاد وجدنى أتحدث بغضب مع موظف التخليص الجمركى. قال الرجل أنه لم يستلم شيئا يدل على أن هناك جثمانا وحقائب بداخل تابوت.. ذهل الرجل وهو يشاركنى غضبى.. أشار إلى البرقية والبوليصة التى استخرجناها لاستلام الجثة.. قال إن علينا أن نحادث المسئول عن السفينة فى ذلك.

- البقية فى حياتكم. نأسف لما حدث للسفينة ولابنكم.

كظمت غيظاً شديدا نحوه وأنا أسأله ماذا يقصد.

قال:

- تعرضت السفينة للغرق أكثر من ثلاث مرات.. لقد سمعتم عن تلك العواصف الشديدة التى تجتاح كل مكان.. نحن فى مواسم الأعاصير ونحمد الله على وصولنا بالسلامة.. قضينا ليال حالكة وكدنا أن نهلك.. تمايلت السفينة على أكثر من جانب.. ألعوبة. لقد كتبت كل هذا فى تقريرى الذى سأقدمه للمسئولين لم نفقد تابوت ابنكم فقط.. فقدنا أشياء كثيرة.. الحمد لله الأرواح بخير كلها وهذا أهم شىء. أيوجد شىء أغلى ثمناً من البشر؟. عندما يتعرض المرء للموت فإن ما يفكر فيه هو روحه لا ما يملكه.. قام البحارة بالتخلص من أكثر أشياء السفينة ولأن الأحياء خير من الموتى فقد تم التخلص من التابوت.. ثم أننا كبحارة كثيراً ما نفضل أن ندفن فى مياه البحر..

سأل أبى:

- والحقائب..؟

رد الرجل والابتسامة الباهتة لا تفارقه.

- لا أعرف.. أعتقد أن كل شىء قد ضاع!!

بدونا جميعاً فى حال يرثى له.. قال العجوز:

- إنها ثروة.. أنت لا تعرف..

قال البحار:

– أنا أعرف أن أى شيء من طرف ابنكم المتوفى يعتبر ثروة..

قاطعه أبى غاضباً:

– إنها ثروة.. ذهب.. كل الأموال التى ادخرها الفتى طيلة ثلاثين عاماً.

أخذ أبى يسب ويلعن فى البحر.. وفى كل من حوله.. حاول الجميع تهدئته.. بكى. لم يصله شيء مما تمنى. ضاعت جثة ابنه فى البحر وضاعت نقوده.. لكن فجأة قال إن البحارة سرقوا الأموال وادعوا أن هناك عواصف كادت أن تقلب السفينة.. قال أنه سوف يرفع شكوى إلى الوزير بل إلى رئيس الوزراء.. بل إلى الرئيس نفسه.. سيرفع قضيته إلى المسئولين وسيحاول أن يخرب بيوتهم أولاد الزانيات.. سيعلمهم كيف يوقفون العواصف وأن يحافظوا على الموتى قبل أن يولدوا.

عاد الرجل مع ابنه وزوجته إلى المنزل، وقد أصابه الإعياء فنام يحلم بأنه يستيقظ من رقدته الأخيرة كى يطلب النجدة من غرق يصيبه. هب الرجل مرعوباً من نومه وقام ليبكى ابنه.. لم يعد يذكر الثروة مثلما فعل ليلة أمس. لكنه تذكر أن دفن ابنه فى مقبرة صغيرة بالقرب منه أفضل من ذلك القصر الذى عليه أن يعيش فيه ويحيطه سياج بأشواك وتحرسه مجموعة من الحرس المسلحين. قال لزوجتى وهى تقدم له فنجان القهوة:

– لقد حدثتكم دائماً أن المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا.. وأنا لم يعد لى مال.. ولا بنون..

قالت زوجتى:

– نحن مالك وبنوك.. وهناك أحفادك على الطرف الآخر من البحر سوف تتصل بهم دائماً..

ظل يحلم لعدة أيام ويحدثنا كيف دخل البحارة إلى الغرفة التى بها التابوت وأخذوا يعيثون فى المكان فساداً أخرجوا الجثة وألقوا بها فى المياه وجلسوا يقتسمون الثروة. أولاد الغوانى سيبنون قصوراً كبيرة تحيطها أسوار شائكة وحولها حرس.. لقد حصلوا على ثروة تكفى لكل منهم أن يتحول إلى ثرى هو وثلاثة أجيال من أحفاده.. كان يجب تفتيش البحارة وهم خارجين من الأبواب.. الذهب فى حقائبهم.. هذا الرجل ذو الابتسامة الباهتة أخذ نصيب الأسد.. يجب أن نطارده ونعرف أين وضع الحقائب.. لقد أكل السمك ابنى وأكل البحارة النقود.. وأكلنى الزمن انتظاراً للثروة التى يبدو أنها لن تصل أبداً..

قالت زوجتى:

– ربما أنها ليست السفينة وأن زوجة أخيك كانت ذكية فأرسلت الحقائب فى سفينة أخرى داخل تابوت آخر.

حاولت فى تلك الأمسية الاتصال بزوجة أخى على الهاتف فلم أستطع.. كتبت لها برقية وخطاب.. هل كان بالحقائب أشياء مشبوهة؟ أموال مثلاً.. أو مخدرات.. فربما أن أخى قد فكر أن ثمن الكيلو من الذهب يعادل ثمن الكيلو من الأفيون أو أى نوع آخر من المخدرات ولعله أرسل أوراق بنكنوت.. حدثينى إن كنت قد رأيت ما بداخل هذه الحقائب.

قلت لأبى إن زوجتى ترى أننا يمكن إبلاغ الشرطة ورفع دعوى على أصحاب السفينة وأننا يجب أن نرسل إلى زوجة أخى أن تفعل ذلك أيضاً، فهى التى قامت بشحن التابوت.

فى مساء اليوم التالى ذهبت مع أبى وزوجتى إلى المحامى، زميل زوجتى فى الدراسة يوماً.. بعد أن حكينا له الموضوع قال لو أن الوقائع التى ذكرها الربان صادقة فلن نحصل على شىء وأننا لو ذكرنا أن هناك حقائب مليئة بالنقود أو الذهب داخل التابوت فسوف يجر هذا علينا وعلى زوجته الكثير من المشاكل وذلك بتهمة التهريب.. قال أبى غاضباً:

- نحن نريد تعويضا عن ثروتنا التى ضاعت.. جثة ابنى لا تهم أحد عداى ولن يدفعوا عن دفنها فى البحر تعويضا.

قال المحامى:

- إن من الأفضل ألا نرفع دعوى وأن نعالج الأمر سلمياً.

ابتسم الربان وهو يحيينا.. يرتدى ملابس خفيفة بالرغم من البرد.. حاول أبى محادثته بأعصاب هادئة بينما لم تخفت الابتسامة الباهتة من فوق شفتيه. قال أنه جدا آسف على ما حدث لنا.

قال أبى أنه جاء إليه فى فندقه الذى ينزل به كى يطلب منه طلب غريباً:

- ابنى غالى جداً على.. لو أنزلتم مجموعة من البحارة فى نفس الأماكن التى ألقى بها التابوت والتقطوه فسوف أدفع لكم مبلغا كبيرا..

قال البحار:

– هذه ليست مهمتنا يا سيدى.. نحن سفينة نقل.. ولا أعرف كيف وافق المسئولون على نقل التابوت فى سفينة ركاب.. هذه جريمة!!

عندما لم يجد أبى بدا من ذكر الحقيقة قالها الرجل.. فقال بمنتهى البرود:

– الأسماك التى تأكل مخلفات السفن لا تفرق بين الذهب واللحم.. وخاصة الأسماك الكبيرة.. ألم تر مثل هذا فى أفلام السينما؟

أحسست أن أبى يود أن ينفجر غاضباً فى وجه الرجل الباهت الابتسامة.. شكره وهو يمد له أصابعه ونزل يسبقنى بينما حاولت أن أخبر البحارة أننى أتمنى ألا تتكرر مثل حوادث الإهمال فى سفينته مرة أخرى. قال مداعباً:

– تعال معى والتقط الذهب كما تشاء فربما يمكنك به شراء سفينة مثل سفيتنا ثم تغرق فى ثوان نحن نحمد الله أننا فوق الأرض..

قبل أن يغلق غرفته بالفندق قال وقد أخفى تماماً ابتسامته الباهتة:

– يا سيد، أنت لا تعرف كم من سفن تعانى الآن فى البحار متاعب أو مصاعب..

وصلتنا برقية من زوجة أخى:

(كم آسف ألا يصلكم جثمان زوجى.. مسكين كم كان يتمنى أن يدفن جثمانه فى بلاده).

قالت فى خطابها الطويل: "صراحة أنا لا أعرف ماذا كان يوجد فى تلك الصناديق.. لا أجزم أنها نقود أو ذهب أو حتى أشياء ممنوعة.. لكن اكتشفت فقط منذ أسبوعين أن أخاكم قد سحب أكثر من ثلاثة أرباع ثروته من البنوك التى يضع فيها حساباته قبل وفاته بعدة أسابيع.. كان المسكين يشعر بدنو أجله.. أؤكد لكم أن الحقائب ملئت بالثروة التى طالما حدثكم عنها المرحوم، لكن لا أعرف بالضبط فى أية صورة".

قال أبى إن زوجة أخى ماكرة وأنها لم ترسل الثروة داخل التابوت (أتذكر يوم أن كتب أخوك أن امرأته تحرضه ألا يرسل شيئاً وأن بيته أولى؟). قالت زوجتى أن المحامى قد ذكر هذا الأمر أثناء حديثنا معه.. قلت لأبى أن علينا أن نتحرى الأمر فلا نظلم أحداً.. أتذكر أن البحار لم يؤكد أنه قد رأى تابوتا فى السفينة.. وأنه لم يسمع البحارة يتحدثون عن قذف تابوت. لكن كل شيء قابل للتصديق أبان هبوب العواصف وسط المياه.. يمكنك أن ترى المئات من التوابيت وتتحول أشياء كثيرة إلى اشياء مضادة.. قال أبى:

– إذن المرأة لم ترسل النقود.. كيف عرفت أنها ثلاثة أرباع ثروة زوجها.. لقد حسبت وعدت كان يجب أن يتزوج أخوك بامرأة من هنا وليس من وراء البحار.

كتبت المرأة رداً طويلاً على رسالة مقتبضة كتبتها:

"لن أقول إن زوجى قد ظلمنى حين كتبت لكم ذلك.. لقد كان يدعى دائما أنه فقير.. وكنت أعرف أنه يكسب ويجب أن يقيم أعباء

المنزل ثم يدخل ما يشاء.. لكنه لم يكن يسمع ما أقول.. وقد فوجئت به يحدثنى قبل وفاته بأيام برغبته أن يرسل الحقائب إلى ذويه.. سوف تحقق هذه الحقائب أحلامهم.. أرسلها إليهم مهما كانت الظروف وبأى ثمن. فهى وصيتى الأخيرة.. وبعد أن مات فكرت أن الوسيلة الوحيدة أن ترسل الحقائب هى أن أضعها فى تابوته وأرسلها. فلم يكن ابنك يفكر فى أن يدفن ببلاده. وربما لم يكن يفكر أنه سيموت هكذا سريعاً بالرغم أنه كان دائم التحدث حول الموت.. وقد فكرت هذه الفكرة كى أعلم أبنائى أن عليهم أن يتصلوا بجدهم وعمهم وأن يفكروا يوماً فى السفر إليهم وقضاء فترة ما معهم ومحاولة تعلم لغتهم التى كاد أبوهم أن ينساها.. أنت لى أب.. وليس لى بعد وفاة ابنكم سواكم قبلاتى الحارة"..

بكى الرجل من جديد.. وقال:

- لقد ظلمنا المرأة.. علينا أن نعتذر لها.

بدأت الرسالة تجد لها عجلة أسرع دوراناً من تلك التى بيننا وبين أخى.. كتبت رسائل إلينا جميعاً.. إلى زوجتى.. وأبي.. وطفلتى الصغيرة.. أرسلت لى برقية منذ عدة أسابيع تهنئنى بعيد ميلادى الأربعين.. قالت يوما فى إحدى رسائلها إنها تحتفظ بأشياء كثيرة كان يدونها زوجها حولنا.. تواريخ ميلادنا وصورنا.. والخطابات التى نكتبها لها.. قالت فى رسالة أخرى أنها تشم رائحة زوجها فينا أكثر من أبنائها.

حدثنى أبي أن الله عوضه الكثير بزوجتى ولديه.. (كنت أخاف أن تنقطع الصلة بيننا وبين نسل أخيكم بعد مماته.. لكن وجود علاقة بين هذه

السيدة الفاضلة وولديها وبيننا يجعلنى أشعر أن وجودهم فى حد ذاته يعد ثروة طيبة).

قال أن امرأتى أيضاً سيدة فاضلة، وأنها لم تحاول مضايقته طوال الأعوام التى عاشتها معنا فى المنزل وأنها أنجبت أبناء طيبين وأذكياء.. وأنجبت زوجتك فتاة حسناء.. وطفلين ستعمل على ترحيل أحدهما يوماً إلى ما وراء البحار كى يأتى لنا بأشياء لم تصل حتى الآن".

فى الأسبوع الماضى بلغت حدة السعادة التى شعر بها أبى مبلغا لم نره من قبل، عندما وصلتنا من جديد رسالة عبر البحار كتبتها أرملة أخى بنفس أسلوب الحب الذى بدا فى كل رسائلها (إلى أبى الحنون الذى أتوق لرؤيته.. أحب أن أطمئنك أن ابنك لم يدفن فى البحر، فأنا هنا بمثابة ابنك.. ولأنك قمت منذ ثلاثين عاما بالعمل على ترحيله من وطنه الأم إلى بلاد بعيدة غريبة كى يحقق لاسرتكم أمانى كبيرة ولأننى امتداد لابنك أنا وأبنائى فقد قررنا أن نعمل على أن نرسل لكم الثروة التى كنتم تطمحون إليها منذ زمن طويل.. أخيراً سوف تصلكم الثروة يوماً.. وأقسم لك بروح ابنك أننى سأفعل أو سأحاول أن أفعل طالما أن هناك نبض فى عروقى. وليست المسألة سوى وقت.. أطال الله فى عمرك).

قال أبى إن علينا أن نجهز حقائبنا للنزول إلى الشاطىء لمدة شهر، فابنى لم يمت بعد. لقد دفن فى المياه لكنه بُعث فى روح زوجته التى سترسل لنا الثروة يوماً.

الفصل الخامس

تناولت زوجتى الرسالة منى للمرة الثانية لتعيد قراءتها.. مطت شفتيها.. تركتنى جانباً وقالت:

– سوف يتحمس أبوك كثيراً لهذه الفكرة.. أما أنا فلست على استعداد أن أتخلى عن ابنتى وألا أراها ثانياً كما فعل أبوك بابنه حتى لو كان ذلك مقابل كل ثروات الدنيا.

قلت:

– ولا أنا.. لست جاد التفكير فى الثروة مثل أبى.. أنا فى سن علي أن أستريح فيه لا أن أرسل أبنائى عبر البحار ليعودوا فى توابيت تأكلها الأسماك.. لقد رحل أخى ولم يحقق شيئاً لنا على الأقل الآن.. أربعون عاماً ننتظر وصول ثروة لم تتحقق حتى الآن.. ولو أننا وفرنا قرشا كل يوم منه خمسين عاماً لأصبح لدينا ثروة لا بأس بها.. لكن أبى صرف الكثير. وزوجة أخى بدت كشيطان رجيم عندما أيقظت حلم وصول الثروة من جديد فكادت أن تحل عقل الرجل.

قال الرجل:

– ألف مبروك يا أولاد.. فكرة طيبة.. ولماذا تعترضان؟

قالت زوجتى:

– هل انتهى الرجال هنا كى أرسل ابنتى عبر البحار لتتزوج ابن عمها؟

رد:

– أليست هذه هى الطريقة الوحيدة لربط أسرتنا بأبناء عمومتهم فستصبح زوجة كبيرهم.. ستنجب أولادا.. دعك من النقود والثروة، فتى ناجح فى عمله.

قاطعت أبى:

- كم من فتية ناجحين فى أعمالهم تقدموا لها ورفضت أنت..

- أنا لم أرفض أحدا.. هى التى كانت تتعلل بأشياء عديدة..

قالت الفتاة:

- ابن عمى يراسلنى منذ أكثر من خمس سنوات يحدثنى فى رسالته حول هذه الفكرة. وقد أحببته من خلال ما كتب.. وأنا التى اقترحت عليه فكرة الزواج وليست أمه.. تلك هذا بالنسبة لى فكرة مبيتة.

أصابتنى لوثة من الغضب.. كدت أهجم عليها، لولا أن منعنى الرجل بينما وقفت أمها تحاول ايذاءها مثلى.. قلت صارخا للرجل وحفيدته:

- لست مستعدا أن أرسلك فلا تعندي.. لا أريد ثروة ولا أى شىء.. أريدكم هنا..

قالت الفتاة:

- لن أذهب هناك لأحقق ثروة لكم، وإنما لأننى أحببت ابن عمى وكنت أنتظر أن أنتهى من دراستى.

قلت لها:

- لقد ضحك عليك فى خطاباته زاعما أنه سيحقق لك مستقبلا باهرا وأنك ستقيمين فى قصر كبير وأنهم يملكون ثروات فى البنوك ويعيشون حياة رغدة.. هذه الفكرة التى نخرها جدك فيك هى التى جعلتك تحبينه..

لم ترد.. قالت أمها إنها لن تقبل بأى حال أن تذهب ابنتها إلى بلاد بعيدة ولا تراها ثانية..

قاطعتها:

– منذ سافر عمك لم نره حتى الآن. لم نر له صورة تشير إلى عمره.. فقط تلك الصورة التى فى الصالون والتى التقطت له قبل رحيله بأسابيع.

قالت ابنتى فى المساء أنها تود السفر إلى الخارج.. أن تعرف كيف تجرى الأمور فى العالم:

فى ليلة قضيتها أثناء إحدى رحلات الجامعة تعرفت على العديد من الفتيات القادمات عبر البحر.. يتحدثن عن بلادهن.. قلن أنه ليس من المشين أن تجوب الفتاة العالم وترى أشياء جديدة كل يوم..

بعد فترة قالت:

– لن أرحل وحدى يا أبت.. سيكون ابن عمى هناك.. لقد أرسل توكيلاً للزواج منى باسم جده.. يبدو أنهم كانوا يحبون أخاك كثيراً.. زوجته تتحدث عنه كثيراً فى خطاباتها.. ابنه يود شيئاً فيه وفاء لأبيه.. والفكرة لا بأس بها.

قلت لها:

– أنا لا أريد أن ترحلى لأن أسرة أخى تتلخص فى كلمة واحدة، إنهم قوم "فشارون".

قالت:

– لنفترض ذلك.. هل يمكنك أن تصفنى بالفشر؟

هززت رأسى بالنفى.. قالت:

– أعطنى فرصة أن أسافر وأرسل لكم ما تريدون!

أحسست بالغليان يسرى فى رأسى:

– ومن قال أننى أريد شيئا؟ إنه جدك المخبول.. الفكرة تدور برأسه منذ أن تزوج بجدتك.. وكل شىء إذا مات بالنسبة له فإن فكرة الثروة تعشش فى رأسه.. أنا لم أرفض له طلبا.. لكنك ابنتى أنا لا ابنته.. وإذا كان قد تحامل وأرسل ابنه وراء البحار، فأنا أحبك ولا أستطيع أن أفعل ذلك.

قلت لزوجتى:

– أنا مقتنع أن الفتاة على حق، هى حرة فيما تفعل، لكن يجب ألا يظهر لها أنني غير متشدد خاصة حيث تعلم أننا قد لا نراها مرة أخرى..

نظرت المرأة لى بشىء من الضيق.. قالت بغضب لم أعتده فيها:

– لقد صاهرت أسرة غير طبيعية. كلهم يحلمون بأشياء لا تتحقق لقد أعادونى إلى عصر الأساطير.. والآن على فتاة منهم أن تذهب.

كانت الصغيرة قد استعدت منذ فترة طويلة.

– أنت تعرف يا أبى أننى أتحدث لغتين بطلاقة.. وأن النقود لم تعد مشكلة.. لن نستدين ثمن تذكرة الطائرة أو السفينة.. فقد أرسل لى ابن عمى تذكرة السفر.. فضلت أن أرحل بالسفينة كى أشعر بمعنى الرحلة فعلاً ولأننى كما عودتنى أحب البحر.

ذهبت مع الفتاة وأمها وجدها إلى المحكمة كى نعقد قرآنها على ابن عمها بناء على التوكيل الذى أرسله الفتى لجده.. بكت الفتاة ونحن خارجين.. بكت أمها وهى تقبلها.. لم ينقطع الاثنان عن البكاء فى السيارة.. منذ اليوم التالى بدأت تعد عدتها للرحيل.. حقائب تملؤها بأشياء عديدة. هدايا لهذا وذاك.. الرسائل لا تنقطع من زوج ابنتى وأمه.. بدأت الفتاة تشعر أنها مقبلة على مرحلة ليست بسيطة كما تصورت فى أول الأمر.. لم تنم كثيراً.. كثيرة البكاء.. قالت لأمها ذات مساء:

– لا أود أن أترككم.

قبل أن ترحل بعدة أيام أقامت حفلاً بسيطاً دعت فيه صديقاتها وزملاءها فى الجامعة وجلسوا جميعا يغنون ويرقصون بينما لم تكن الصغيرة فى أحسن حالاتها.. ترك الحفل أثراً عكسياً داخلها فقد زادها اكتئاباً.. قالت لجدها:

– أنا غبية.. لا أعرف كيف أترك ماما وأذهب إلى قوم غرباء لا يعرفوننى؟

قال لها الرجل:

– أبوك رجل غبى.. وأمك متخلفة.. لقد أفسداك.. سافرت ومعك سعادتك وهناؤك..

لم تنم الفتاة كثيرا ليلة الرحيل.. تشعر بمسئوليات جسام ستقع على عاتقها.. فى الخامسة من يوم السفر خرجت فى سيارة جدها حيث جيرانها الذين وقفوا فى الشرفات يودعونها.. لم تغالب دموعها. قالت لى قبل أن تصعد إلى السفينة:

– لا تتضايق يا رجل.. فسأحاول أن أجيء مع زوجى يوماً!

ثم عرجت على جدها وقبلته وهى تحاول أن تضحك وقالت:

– أما أنت فعليك أن تكون قلقا حتى أرسل لك كل ما تطلب.. سوف يكون لك أحفاد فى جميع أنحاء الدنيا..

ثم صعدت إلى السفينة..

أرسلت أولى رسالاتها بعد عدة أيام من رحيلها.. كتبت وهى فى عرض البحر:

"الرحلة ممتعة للغاية.. لم أشهد مثل هذه الأجواء من قبل.. بلاد كثيرة توقفت فيها سفينتنا.. كثير من البشر يتجاورون يومياً فى مقصورات النوم.. يتناولون طعامهم معا.. يقضون سويا بعض السهرات، عالم لم أعتده من قبل.. كم تمنيت أن تكونوا معى جميعاً.. البحر صاف ليل نهار. لا أعرف كيف مات عمى فى هذا البحر ولا كيف يمكن لهذه المياه الرقيقة الرائعة أن تتحول إلى وحش كاسر كما قال البحار لى بالأمس. بالأمس مرت السفينة بنفس المكان الذى قيل إن جثة عمى قد ألقيت فيه.. لم أشهر البحر هائجاً كما كنت أتصور.. حدثت أحد رفاقى فى الرحلة.. قلت له إن عمى مدفون هناك فى تابوت ملىء بالذهب الذى يمكن أن يشترى سفينة ضخمة كهذه. قال رفيقى أنه يعرف غواصا بارعا يمكنه أن ينزل إلى أعماق المياه ويأتى بأكياس الذهب وأن على أن أدفع له أتعابه.. قال الغواص ان هناك أسطورة تقول إن على بعد كل مائة عقدة فى البحار يوجد صندوق كبير ملىء بالذهب ألقته سفينة يوماً. عندما حادثت الربان فى

حفـل العشـاء الـذى أقامـه لـبعض الركـاب بالموضـوع أجـاب وهـو يبتسـم ابتسامة باهتة:

- كثيـراً مـا سـمعت عـن مثـل هـذه الأقاصـيص ولـم تعـد تصـدق الكثيـر منها..

قالـت الفتـاة أنهـا قـد تعرفـت فـوق سـطح السـفينة علـى فتـى يـود أن يعمل فى بلاد ما وراء البحار كى يمكنه أن يحقق مستقبلا طيبا.. ضـحكت منـه وقالـت أن جـدها يحلـم مثلـه بهـذه الأشـياء، وأن هنـاك أسـباب عديـدة تحول دون وصول الثروة إلى الرجل.. قال الفتى:

- لو كان جدك هو الذى سافر لتغير الحال كثيراً..

"سأحاول أن أجعل صديقى هذا يتعرف على زوجى وأن أجعله يعمل فى المزارِع الشاسعة التى يملكها ورثة عمى.. ربما سأجعله يعمل معنا فى القصـر الواسـع الـذى تحيطـه أسـوار شـائكة وحولـه حـرس.. قـال الفتـى أنـه مستعد أن يعمل أى شىء.. أن يبدأ حارسا لهذا القصر.. فربما يتمكن يوما من شرائه".

قال أبى أن هذا الفتى سينجح هناك وسيحقق لنفسه أشياء لم يستطع ابنـه أن يفعلهـا.. كتـب إلـى حفيدتـه أن تعمـل علـى مسـاعدة صـديقها بـأى صـورة فهـو مكـافح (لكـن حـذاري أن يشـترى القصـر وتصـبحون أنـتم خـدم عنده أو تعملون حرساً على جدرانه).

وصـلت رسـالة مـن ابنتـى لأمهـا بعـد عـدة أشـهر.. قالـت انهـا تعـيش سعيدة.. لم يعجب زوجها كثيراً برفيق رحلتها.. رحل الفتى إلى مدينة أخرى

ووعدها أن يراسلها.. استقبلتها زوجة عمها بحفاوة.. حماة جميلة.. أكثر شبابا من أمى.. طويلة.. رشيقة.. تمارس الرياضة صباحاً.. وتذهب إلى عملها فى الظهيرة.. وتقيم الكثير من الحفلات الرسمية فى المساء.. ثم تأتى إلينا لتحيينا.. نحن لا نسكن قصراً فخما.. لكنه سكن جميل مثل كل المساكن التى تحيطنا.. الأشياء هنا متوفرة.. وعندما تتوافر الأشياء يقل حديث الناس عنها.. لا يتكلمون كثيراً عن الثروات مثلما يفعل جدى.. ربما لهذا تباطأ عمى فى إرسال الثروة إلى أبيه لأنه تصور أن كل العالم يعيش كهذا.. فى أول ليلة مع زوجى قال وهو يقبلنى:

– المصنع الصغير الذى نملكه عليه الكثير من الديون، علينا أن ندفع ديون هذا المصنع.. وأن نسعى بعد ذلك إلى تكوين ثروة يمكننا أن نرسلها إلى أبويك وجدك، وأن نسعى فقط أن نصنع أبناء.. ثم أحفادا..

قالت الفتاة انها وضعت لوحة صغيرة فوق سريرها الصغير "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" وقالت إن زوجها قد قام بدوره كاملا كزوج فى أول ليلة لهما معا.. قال جدها بعد أن قرأ الخطاب:

– حسنا. أحفادى مثلى سينتجون نسلاً رائعاً..

قلت مشيراً إلى زوجتى وهى تبتسم:

– وأنا.. رجل مثل أبى ومثل هذه المرأة..

فى إحدى الليالى الشديدة الحرارة فوجئت بالهاتف يرن.. آلو.. آل.. ترنك لسيادتك من وراء البحر.. جاءنى صوت ابنتى مليئاً بالبهجة مشتاقة لرؤيتكم كثيراً..

– كيف حال ماما.. وجدو..؟ أنا حامل فى الشهر الرابع.. سألد لجدى طفلا جميلا وسأرسله إليه كى يباركه ويعيش معكم فترة كى يتعلم خصالكم الجميلة.. زوجى يريد أن يحدثكم..

قبل أن أسمع صوت زوج ابنتى جاءنى صوت موظف الهاتف:

– نأسف يا سيد.. لقد انقطع الاتصال تماماً.. سنحاول مرة أخرى.. ليس لنا يد فى هذا. لا نعرف ماذا حدث.

بدت زوجتى عصبية فقد كانت ترغب فى سماع صوت ابنتها.. ود أبى أن يسمع صوت حفيده وزوجته وبقية الأفراد.. حاولنا طيلة الليل أن نجعل موظف الهاتف يعيد الاتصال فلم ينجح.. فى الليلة التالية ازدادت حدة قلقنا جميعا.. اتصل بنا بعض الأصدقاء فى أول المساء.. فى الليلة الثالثة خفت الحدة قليلاً.. بعد عشرين ليلة كنت أنا، وقد احتضنت الهاتف بيدى، بينما نامت زوجتى ملء جفنيها.. لكننى لم أسمع صوتاً عبر البحار.

قالت الفتاة فى رسالة لأمها:

(كنا نود أن نسمع أصواتكم.. حماتى تحييكم.. هى مريضة بعض الشيء.. ادعوا لها بالشفاء).

قال موظف تليفونات كبير قابلته فى مكتبه:

– لا يوجد خط مباشر بيننا وبين بلاد ما وراء البحار.. لم يحدث هذا من قبل.. نحن نتصل بالكثير من دول العالم.. لكن هذه أول مرة .. لا نعرف كيف حدث هذا.. وليس من الغريب أن يحدث اتصال ثم ينقطع.. وان كنت أشك أنه قد حدث أى اتصال..

أكدت لى زوجتى أننى لم أكن أحلم، وأنها سمعتنى فعلاً أحادث ابنتى فى الهاتف.. قلت للموظف إن ابنتى قد حادثتنى فعلا وأنها قد ذكرت هذا لى فى رسالة لأمها فقال:

- هذه ظاهرة التخاطر.. وأعتقد أنك وابنتك تفكران فى بعضكما كثير!

لم تنقطع الفتاة عن الكتابة لنا. تصلنا رسالة أسبوعياً منها. تكتب لأمها.. أو لجدها.. أو لأبيها كتبت يوما رسالة لأخيها تحدثه فيها أن عليه أن يترك الدراسة وأن يستعد كى يسافر إليها حتى يعيش هناك حياة أفضل.. أموال كثيرة.. ومدن واسعة نظيفة.. ونسبة أكثر من المسطحات الخضراء.. هناك أناس يضحكون دائماً.. وينفقون الكثير من النقود من أجل متعتهم.

قال الفتى أنه أرسل لأخته رسالة طويلة عاتبها فيها بشدة بأنها أصبحت مثل أبيها وجدها لا تفكر سوى فى الثروات والأموال والرخاء، والرضاء عن النفس هو أصل الثروات وهو الثروة الوحيدة الباقية.. لقد مات عمى، وذهبت أنت ولم نر منكم شيئاً.. أنا أشعر أنه لم يعد لى أخت.. فأنا لم أعد أراك.. وليس فى المنزل الكثير من الصور لك.. لا نعرف عنك سوى ما تكتبينه فى رسائلك.. وأنت لا تعرفين عن أخبارنا الآن سوى ما نكتبه لك سواء الكاذب منها أو الصادق.

قلت للفتى إن عليه ألا يكتب مثل هذه الرسائل وأنه يجب أن يكون مجاملاً إلى أقصى الحدود مع أخته حتى لا تغضب منه.. حاولت أن أثنيه عن عزمه كى لا يبعث الرسالة لكنه قال:

- لقد عودتنى أن أقول رأيى بحرية.. وأنا أختلف كثيراً معكما..

قلت له:

- إذا وصلت الثروة يوماً.. هل ستغير أفكارك؟

قال ذلك الجاهل:

- أنا ثروتى فى الكتب التى أقرؤها..

قلت:

- أنا أعرف أن الثروة لن تصل.. لكن أختك تعيش فى بلاد كلها أثرياء وثروات ويمكنها أن ترسل نقوداً يوما ما.. نتمكن بها من أن نعيش أفضل.

مط شفتيه.. قال:

- أنا هكذا أفضل..

فى اليوم التالى لإرساله الرسالة جاءتنى برقية عبر البحار (بدأت أضع أول مبلغ كبير باسمك فى بنك كبير طرفنا.. كى يمكننى أن أرسل لك ما تمناه جدى يوماً من ثروة).

الفصل السادس

وصلت الثروة أخيراً.. مبلغ كبير يصعب على المرء أن يتصوره.. انتظرنا وصوله خمسين عاما منذ أن ركب أخى سفينة كبيرة عبرت به البحر.. لم يرسله أخى، ولا زوجته، ولا ابنهما. قالت ابنتى فى خطابها إن علي أن أذهب إلى أقرب فرع للبنك كى نتمكن من صرف الشيك.. قال أبى وهو يجلس على سريره الذى لم يعد يبرحه كثيراً:

- أحمد الله أن الفتاة أرسلت المبلغ باسمك. فأنا لا أستطيع أن أخرج لصرفه.. كنا نود أن تشاركنا زوجتك فرحتنا.

قلت لابنى الذى تخلى عن كل مواقفه البطولية:

- سوف تتمكن من أن تتزوج زواجا طيباً.. أجمل فتيات المدينة.. لن نجعلك تنام فى نفس الغرفة التى تزوج بها جدك.. سنذهب غداً ونأتى بالأموال.. إنها كثيرة جدا ولا نعرف كيف يمكننا الاحتفاظ بها.

قال أبى:

- علينا ألا نحتفظ بها فى الشقة، فكل الجيران سيعرفون أن ابنتك أرسلت الثروة.. ومن الليلة سيحوم اللصوص حول الأبواب.. البنك أكثر أماناً..

قال ابنى بشىء من الغطرسة:

- من اليوم سوف يحل الخوف فى المنزل بدلاً من الأمل.. كنا نأمل أن تصل الثروة، وعندما وصلت بدونا خائفين من أن تسرق أو أن تصاب بما

حدث لمثيلتها فى البحر.. هذا عيب المال.. لماذا لا نصرفه؟. لماذا لا نبنى جمعيات خيرية ودور عبادة ثم نبنى لأنفسنا القصر الذى تتحدثون عنه ونعيش؟. لماذا نترك الأموال فى البنوك؟

وفى اليوم التالى اصطحبنى ابنى إلى البنك.. قال موظف إن علي أن اقابل السيد المدير كى يوافق بنفسه على صرف مثل هذا المبلغ الضخم.. استقبلنى الرجل بترحاب.. دعانى إلى كوب شاى بعد أن رفض ابنى أن يشرب شيئاً.. قال المدير فى أدب جم للغاية:

– هذا المبلغ لم يصل بعد إلى بنكنا.. سوف نسأل بالتلكس.. ويمكنك أن تسأل فى بنوك المدينة الأخرى..

صافحنا بأدب وهو يشير من طرف خفى أن بنكه أكثر بنوك المدينة أمنا وأن علينا أن نضع النقود فى بنكه..

قال مدير آخر إنه يتمنى أن ينال شرفا عظيما لوصول مثل هذا المبلغ باسم بنكه.. لكن الشيك لم يذكر اسم البنك الذى عليه اعتماد الصرف.. قال:

– ليس فى بنكنا كله مثل هذا المبلغ المرسل إليكم عبر البحار.

فى بنك آخر استقبلنا مديره قائلاً:

– يجب أن نجرى اتصالا هاتفيا بالبنك المودع فيه حساب أصحاب الثروة كى نطمئن.

قالت الموظفة أن الاتصال الهاتفى معطل منذ أسابيع مع بلاد ما وراء البحار.. وأن الكابل البحرى يجرى إصلاحه من قبل الخبراء الدوليين.. قال الرجل غاضبا أن عليها أن تتصل بالتلكس.. قالت بعد فترة قصيرة إن التلكس قد عطل أيضا لتوه.. أعطانى المدير الشيك معبرا عن أسفه وطلب منى أن أحضر فى اليوم التالى..

لا أعرف ما الذى حدث للاتصال بين البنك وبين بلاد ما وراء البحار.. بدا المدير عصبياً للغاية فى الأيام الخمسة التى قمت بزيارته فيها.. كان يرغب أن يقوم بصرف الشيك حتى أودع رصيده فى البنك كحساب جار.. بدا أبى قلقاً وأنا أحدثه بما يجرى.. ابنى ازداد إيمانا أن عليه أن يرافقنى فى كل مرة أذهب فيها إلى البنك لأنه المستفيد الأول من النقود الكثيرة التى سنستلمها.. (سأتزوج.. وسأبنى قصراً أعيش فيه مع زوجتى.. وستخصص لجدى غرفة كبيرة.. أما أنت فستعيش فى الجناح الأكبر).

قال ابنى:

– علينا أن نبحث عن بنك آخر.

قال مدير العلاقات العامة:

– مثل هذا المبلغ يجب ألا تودعه سيادتكم فى بنك واحد.. عليك أن تضع الشيك فى بنكنا وسنتولى الاتصال ببلاد ما وراء البحار.. لا تقلق.

قال أبى:

– إنهم يضحكون عليك.. هات الشيك وسأتولى أنا الاتصال ببعض من أعرفهم.

بعد عدة أيام ذهبت إلى البنك وتسلمت الشيك.. قال السيد مدير البنك:

– آسف. لم نستطع معرفة اسم البنك الرئيسى ولا الرقم الكودى والاسم الرمزى.. عليك أن تسافر إلى العاصمة.

سافرت إلى العاصمة فى اليوم التالى مع ابنى.. المدينة كبيرة.. لا نعرف أحدا من الناس هنا.. دخلنا أكبر البنوك.. استقبلنا المدير ببشاشة.. طلب لنا المشروبات وقال أن الأمر لا يستدعى أية ألوان من القلق.. فقط ساعة واحدة ونصرف الشيك.. عندما دخل الكثير من الزوار استأذنا كى نجلس فى البهو الكبير.. جو ألفناه فى الفترة الأخيرة.. زحام.. ونقود تخرج من هنا لتدخل هناك.. وجوه تخرج باشة بعد أن استلمت مبالغا قد تكون صغيرة أو كبيرة

بعد ساعة جاءنا المدير وقال أنه لم يكن يتصور أن الأمر صعب كما حدث:

– المبلغ كبير يا سيدى ويجب أن يكون هناك ضمان.. لا يمكنك استلام المبلغ كله..

قال ابنى:

– نحن نملك شيكاً واحداً وليس عدة شيكات.

أفهمنا الرجل أن عمولة البنك ستكون كبيرة.. قلت لابنى ونحن نجلس على المقهى المجاورة للبنك أننا يجب أن نعود للمدينة ومعنا النقود.. وأننا يمكن أن ندفع أية عمولة يطلبها البنك أو الرجل نفسه.. عندما عدنا بدا الرجل مرتبكاً وكأنه وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه..

قال ببساطة:

– الساعة الآن الواحدة.. والإجراءات فى مثل هذه الحالات تستغرق الكثير من الوقت غداً بإذن الله..

قلت لابنى فى الفندق:

– هذا المدير رجل غامض.. علينا أن نحاذر منه

اقترح الشاب أن نذهب إلى بنك آخر.. قلت:

– هناك مثل كانت جدتك تردده وهو أن عليك أن توافق الكاذب حتى باب الدار..

قلت له ونحن نخرج من البنك نلعن هذا المدير:

– يبدو أنه يريد عمولة أكبر.. علينا أن نعطيه الشيك بأكمله ليصرفه لنفسه..

قال الشاب:

– نحن أشبه بمن عثر على اللؤلؤة الكبيرة الحجم فلم يجد من يشتريها لارتفاع ثمنها فألقاها فى البحر.. علينا أن نمزق الشيك:

قلت مازحاً:

– نعطيه لأقرب شحاذ يقابلنا..

قال موظف الأمن على باب بنك ونحن خارجين:

– أفضل طريقة أن تسافر إلى أقرب دولة وأن تصرف الشيك وتحوله إلى عملات محلية من هناك.. كثير من البلاد لا تهتم إلا بالعمولات التى تأخذها..

استخرجت جواز السفر.. عانيت كثيراً كى أحصل على تأشيرة دخول أقرب دولة.. قال أبى قبل أن أسافر إننى قد سمعت نصيحة موظف صغير وأننى سأدفع ثمن هذه النصيحة يوما ما.. تسمح السلطات فى أية دولة بتحويل مثل هذا المبلغ إلى بلد آخر.. أكمل:

– زوجة أخيك كانت ذكية حين وضعتهم فى التابوت.. وأنت أين ستضعهم؟

قلت لأبى:

– أتعرف أنها أول مرة أغادر فيها أرض الوطن.. رحل ابنك فوق سفينة. وابنتى فعلت مثله.. أما أنا فسأستقل طائرة.. كنت أود أن أسافر لابنتى.. لكن الثروة جعلتنا لا نفكر سوى فى كيفية الحصول عليها..

قال العجوز:

– لا تقلق.. سنحاول أن نستغلها جيداً..

قالت خطيبة ابنى إنها ستصلى من أجلى كى أتمكن من صرف الشيك.. ودعتنى وهى تقبلنى.. رفعتنى الطائرة إلى السماء كى أرى البيوت الصغيرة.. ولأعبر من أعلى أماكن لم أسمع كثيراً عنها.. بعد ساعات قليلة حطت الطائرة فى مدينة لا أعرف عنها سوى اسمها ولغة أهلها..

هناك بيوت أشبه ببيوتنا وشوارع تسير فيها سيارات، ونفس الوجوه التى فى مدينتنا لكن لا أحد يفهم ما أقول.. فى الفندق حاولت المضيفة بشىء من البرود أن تجعلنى أفهم أن الجو سيكون شديد البرودة أثناء الليل.. مع ذلك لم أقم.. وقفت أمام النافذة أرقب الناس ينامون.. تصورت أخى فى أول ليلة اغترب فيها.. وابنتى وهى ترافق صديقها فى السفينة.. تخيلت نفسى وأنا أصرف الشيك ثم أشترى عمارة ضخمة من هذه العمارات التى أمامى وأقوم بإخلاء جميع ساكنيها.. ثم أتزوج نساء المدينة كلها وأنجب الكثير من الأبناء.. ضحكت وأنا أنظر صورتى فى المرآة.. عجوز فى الستين.. سوف تجرى النساء خلفى من أجل النقود الكثيرة التى سأحملها فى حقائب وأعود بها إلى بلادى..

فى البنك وجدت موظفاً يفهم اللغة التى أجيدها.. فإن كل بنك فى أى دولة له فروع فى بلاد أخرى ولا يمكن صرف الشيكات إلا من هذه الفروع..

عليك أن تسافر إلى المدينة المجاورة، فالبنوك الكبرى توجد بالمدن الصغرى فى بلادنا.. ركبت قطار الضواحى.. جلست أرقب أشياء أراها فى

الصحف وبعض الأفلام من وقت لآخر.. فى الفندق الصغير الذى نزلت به وجدت رجلاً يفهم أيضاً اللغة التى أجيد التحدث بها..

قال إن اللصوص هنا كثيرون، وأن علي أن أعود إلى العاصمة وأن أخفى سر الشيك عن كل من يقابلنى.. قال رجل فى العاصمة أن صاحب الفندق قد ضحك علي وأنه أخذ الكثير من الإكراميات جزاء نصائحه، وأن علي أن أعود إلى المدينة الصغيرة وأحاول صرف الشيك.. لم أبلغ أحداً بقيمة المبلغ.. لكن مفتش الشرطة قال بلهجة ركيكة:

– أعتقد أن بنوكا ترفض التعامل مع الأجانب بمثل هذه المبالغ.. أنصحك بالعودة إلى بلدك..

قال مدير البنك الوطنى:

– إذا كانت بلادكم تسمح بإدخال مثل هذا المبلغ إليها.. فبلادنا لا تسمح بخروجه منها.. ولا أعرف كيف يخرج مثل هذا المبلغ من بلاد ما وراء البحار.. عد إلى بلادك ولا تضيع وقتك هنا..

قال المستشار الاقتصادى فى السفارة أن ما فعلته كان شيئاً غريباً:

– سيدى.. فى بلادنا بنوك كثيرة يمكنها أن تصرف لك الشيك. عد وتصرف جيداً..

كتب رسالة إلى صديق له كى يتولى مساعدتى يعمل فى الخارجية.. عدت إلى الفندق وأنا اشعر بالقرف.. ظللت بالمدينة يومين آخرين أحاول أن أحقق نجاحاً.. لكن طائرة حملتنى إلى بلادى..

قال أبى وقد ارتسم اليأس على محياه:

– ألم أقل إنك لا تجيد التصرف.. لقد أخطأت الفتاة عندما أرسلت الشيك باسمك.. كان عليها أن تكتب باسم جدها..

وصلتنى رسالة أثناء سفرى الذى استغرق أسبوعين من فتاتى، تمنت فيها أن "تكون قد استلمت الثروة وأن تبنى بيوت عبادة ومؤسسات خيرية، ثم قصراً كبيراً للأسرة كما تحلمون".

سطرت ثلاث رسائل إلى ما وراء البحار.. واحدة لأرملة أخى.. وأخرى لابنها.. والثالثة لزوجته.. قلت إن الشيك لم يصرف حتى الآن.. لكن هناك موظفاً سيتولى مساعدتى فى الخارجية.. قال لى:

– لا تقلق. إجراءات بسيطة.. البنوك التى يمكنها أن تصرف هذا الشيك كثيرة فى مدينتنا.

قال موظف صغير فى نافذة البنك الذى رافقنى إليه الرجل:

– لقد صرفنا الكثير من هذه الشيكات الواردة من هذا البنك الذى يقع وراء البحار.. المسألة لم تكن تستدعى سفرك وتأخيرك هكذا.. لكن..

شعرت بالجزع وهو ينطق بهذه الكلمة.. أكمل:

– المبلغ كبير.. ولهذا..

– عليّ أن أودعه فى بنككم؟..

– لا.. أنت حر فهذه أموالك.. شيك كهذا يجب علينا التأكد من صحة توقيعاته..

ازدادت نسبة الجزع.. قلت ببلاهة:

- إذن لن أقبض المبلغ الآن..

- لو أنك مكانى لعذرتنى.. أنت ترى أن المبلغ كبير.. مجرد تأكد لا أكثر..

- كم يستغرق من وقت؟

- ليس أقل من أسبوعين..

- وسأستلم المبلغ بأكمله..

- كما تود وبالعملة التى تريدها..

قال بعد ثلاثة أسابيع إن الشيك لم يصل بعد إلى البنك بما يثبت صحة التوقيعات:

- لا تقلق..

قال بعد ثلاثة أسابيع أخرى:

- نحن نأسف أن نبلغك أن الشيك لم يصل بعد وعليه التأشيرة.. إجراءات لابد منها..

نادتنى خطيبة ابنى التى تقيم فى منزلنا منذ أشهر وقالت إن هناك من يطلبنى هاتفياً..

جاءنى صوت الموظف وقد علته البشاشة قائلاً:

- أبشر يا سيد.. لقد وصلت التأشيرة أخيراً.. الشيك صحيح.. والتوقيعات صحيحة ويمكنك أن تحضر فى أى وقت لتستلم المبلغ..

ارتفعت الدعوات فى أرجاء المنزل.. رقصت ابنتى.. ضحك العجوز بشدة وهو راقد على سريره قال إن الله قد عوضنى صبر الجميع خيراً.. وأن المشاكل ستحل أخيراً.. قلت وأنا أرتدى ملابسى:

- من ضحك أخيراً ضحك كثيراً..

رافقتنى خطيبة ابنى إلى البنك.. السيارة تمرق بنا الشوارع مسرعة قلت لها مداعباً:

- أرجوك لا تصدقى أحداً وإلا ضاعت فرصتنا هباء..

فى البنك قابلنى الموظف وقد اختفت البشاشة من وجهه.. حيانى بطريقة لا تبعث على الاطمئنان داخلى.. الشيك أمامه.. تنهدت وأنا أمسكه بيدى.. قلت للموظف:

- خيراً.. هل من مشاكل جديدة؟

مد لى يده بالرسالة المرفقة بالشيك.. قرأتها.. الشيك سليم.. والمبلغ يجب أن يسلم إلى صاحب الشيك وأن على البنك أن يستلم فقط من صاحب الشيك تمغات توقيع لا أكثر..

قلت للموظف:

- ألا يوجد فى الخزانة نقود تكفى؟

هز رأسه بالنفى..

سألته الفتاة جزعة:

- لم نفهم ماذا حدث.

أشار إلى الشيك وقال:

- ألم تلاحظ أن الشيك مؤرخ منذ فترة ليست قصيرة وأن فترة السماح بصرفه قد انتهت من عدة أسابيع؟

انتفضت وأنا أصرخ فيه:

- أعرف تماماً هذا.. ولكن. ألم يكن فى حوزتكم أثناء هذه الفترة؟ من الذى أخره..؟ نحن أم أنتم؟

قال بهدوء ذكرنى بالبحار الذى قذف بتابوت أخى فى البحر:

- إجراءات ليس علينا إلا أن نتأكد منها.

وضع الشيك فى مظروف ومده لى.. قلت:

- علي أن أقابل رئيس مجلس الإدارة.

قال هو الذى لاحظ بنفسه هذه المخالفة. إنها تعليمات ونحن آسفون.. عليك أن ترسل الشيك إلى صاحبه كى يغير التاريخ ويوقع من جديد عليه.. أو يكتب لك شيكاً آخر.. بمنتهى البرود قال:

- يمكنه أن يؤرخ الشيك بتاريخ متأخر لعدة أشهر وأن يرسل أيضاً بياناً به صحة التوقيع.. إنها مسألة وقت..

خرجت من البنك وأنا ألعن وأسب كل بنوك الدنيا، وكل البحارة الذين يرمون التوابيت فى المياه بينما ارتفع صوت الفتاة وهى تبكى وقد اكتفى الآخرون بالنظر إليها.. بلهاء.. لماذا تفعل ذلك؟

فى صباح اليوم التالى رميت فى صندوق البريد رسالة مسجلة أرفقت بها الشيك الذى لم أستطع أن أصرفه، وكتبت لابنتى كلاماً كثيراً قلت فى نهايته: حتى الآن لم تصلنا الثروة الحقيقية بعد.. نحن مازلنا فى انتظارها.



الفصل السابع

"ابتى.. لا تستطيع أن تتصور مدى ما حدث.. أشياء لا تحدث سوى يوم القيامة.. السماء تنهال فوق الأرض.. الأرض تنشق وتبتلع الكثير من فوقها.. المبانى.. السيارات.. الحوانيت.. الأشخاص.. لا أحد يمكنه أن يبكى أو يصرخ؛ فجوف الأرض أسرع من كل أنواع الصراخ.. ألوان عديدة تراها فى نفس اللحظة.. لكن كل الألوان تصبح سوداء أمامك.. يخيل إليك أنك ترى كل شىء.. وأنك لم تعد ترى شيئاً إلا أمطاراً تنبعث من الأرض.. وأشياء كثيرة تبتلعها السماء ولا ترى.. كل شىء العيون والآذان.. أفواه مفتوحة لا تفعل شيئاً سوى الصراخ يتحول الأطفال إلى كرات صغيرة تتدحرج على الأرض التى تبتلعها.. أو تصيبها النيران فتحرقها وتحيلها فى لحظات إلى كتلة من الفحم الأسود.. لا تعرف ماذا جرى.. أهى لعنة من السماء؟ أم أنها تذكرة من الله أن علينا أن ننتبه نحن الآدميون أن يوم البعث قادم؟ بدأ هذا فى الثانية عشر ظهراً إلا خمس دقائق، وانتهى بعد دقائق قليلة.. أو لعلها ساعات طويلة.. كنت وحدى فوق الجبل مع ابنى الصغير وجدت نفسى أتدحرج معه فوق الأرض.. كل شىء يهتز من حولنا.. ثم انتهى ما حدث فجأة كما بدا.. ولم أنتبه إلا وأنا فى مخيم الغوث.. يقولون إن انهياراً عصبياً مثلما حدث مع كل الناجين من الحادث.. شعرت بالاختناق وأنا أرى ابنى راقداً فوق السرير المجاور.. قبلته بشغف.. عرفت أن كل من بالمنزل قد ابتلعهم الأرض.. لا تقلق يا أبى.. مش هذا الحادث يعلمنا الكثير.. صل من أجلنا. لقد خسرنا كل ما كسبناه فى هذه البلاد".

أخفيت الرسالة عن أبى الذى لم يعد يحتمل أية هزة نفسية.. قالت زوجة ابنى إن الصحف قد تحدثت عن هذا الحادث منذ عدة أشهر.. قالت ابنتى فى رسالة: "نحن الآن أفضل ولذا تأخرت فى الكتابة إليكم حتى لا تصابوا بأى قلق".

قالت زوجة ابني:

– تعمدت أن أخفى عنك الصحف والراديو يومها.. لا تقلق..

قال ابنى أنه أرسل لأخته يطمئن عليها فلم ترسل له رسالة واحدة وأن هذه أول رسالة تصل المنزل منذ الحادث.. صرخت فيه:

– ولماذا لم تسافر كى تطمئن عليهم أيها....؟

– قد يجعلك هذا أكثر حزناً وقلقاً.. فقد قالت الصحف إن الضحايا كثيرون..

– ولماذا لم تخبرنى لأسافر أنا؟

– أنت مريض.. لا تحتمل أى لون من الإرهاق.. كان السؤال الذى علينا أن نطرحه هو ماذا نفعل إزاء المرأة وابنها.. لقد أعطتهم الحكومة مسكناً صغيراً يقيمون به.. وبعض المعونات. لكن هذا لا يكفى..

قلت إن علينا أن نبعث ونطلب منها أن "أحضرى بسرعة فمنزلك فى انتظارك".. ردت على البرقية بأخرى قالت فيها: "أنا هنا فى بلد زوجى وعمى وابنى وسأعيش هنا إلى الأبد".

كتبت فى رسالتها التى بعثتها على عجل أيضاً: "بالرغم مما حدث.. فلم يفكر أحد هنا أن يهجر المدينة.. ولا أن يرحل إلى مناطق أخرى"..

قال أخوها إن أخته دائماً مجنونة.. تزوجت من ابن عمها بأسلوب غريب.. وأرسلت شيئاً لم نستطع صرفه.. ثم هى تلتصق بأرض فيها كل كوارث الدنيا.. هذه المرأة نفسها كارثة.. سأسافر وأحضرها بنفسى.. أعد عدته للسفر كى يأتى بأخته.. لكن لا نعرف ما الذى دفعه إلى أن يتراجع فى آخر يوم.. قال:

- أخاف ركوب الطائرات.. الحوادث كثيرة هذه الأيام..

قالت زوجته:

- إذن أسافر أنا.. أو لنجعل أحد هؤلاء العواجيز يسافر.. أبوك فى السبعين.. وجدك اجتاز المائة

وصلتنا رسالة من ابنتى تؤكد إصرارها أن تبقى وأخوها وأمهما.. وأنا أشعر أننى كلما وطأت فوق الأرض أنهم ينظرون إلى من أسفل.. أنهم معى فى كل مكان.

قلت:

- إذا كانت أختك مجنونة.. فعلينا أن نرسل لها أموالاً كى يمكنها أن تلئم الجرح الذى أصابها..

قالت زوجة ابنى:

- لم يعد فى المنزل رصيد كبير يمكننا أن نرسله..

قال زوجها:

- نبيع السيارة.

بعد عدة أيام قدم لى ثمن السيارة وقال:

– لم نستطع أن نوفر سوى هذا المبلغ..

أرسل شيكاً باسم اخته الى بنك فى المدينة المجاورة لمدينتها. كتبت الفتاة أنه لم يكن هناك داع لإرسال مثل هذا المبلغ.. "أنا بخير والحمد لله".

قلت لابنى:

– ليس لأختك الآن أهل أو اقارب.. ولا مسكن مريح كالذى اعتادت عليه.. يجب أن تأتى بها بأى شكل سأسافر وآت بها..

قال:

– هناك اقتراح أفضل..

حدثنى أن هناك رجلاً كان يحبها قبل أن تسافر إلى الخارج، وأنه قد دهش من سعى الفتاة وراء المال وهى المشهورة داخل الجامعة بالمثاليات.. "هذا الشاب يود أن يتزوج أختى.. لقد فشل فى الزواج ثلاث مرات.. قال إنه يرى خيالات تحوم حوله بأنه سيتزوج أختى يوما".

قلت لابنى:

– دعنى أقابل هذا الرجل.

استقبلته فى المساء.. نظر إلى صورة للفتاة بالصالة وقال:

– كأننى رأيتها بالأمس.

قال ونحن نحتسي القهوة:

- إذا فكرت أن تعيش هنا سأجعلها سعيدة..

ردت ابنتى فى الهاتف:

- لا أود أن أتزوج.. سأربى ابنى..

تم ذلك فى أول اتصال بيننا بعد عدة سنوات من الانقطاع.. بكيت وأنا أسمع صوتها، لم يعد له نفس نبرات البراءة والشقاوة.. قالت:

- إذا بكيت أنت فماذا أفعل أنا..؟

بعد حديث طويل حدثتها عن الرجل الذى يريد الزواج منها.. قلت:

- لن يغير الكثير من حياتك. سيعيش ابنك معكما.. حدثنى أنه كان مغرماً بك أيام الجامعة إنه أحد أثرياء المدينة.. أنا أعرف أن الثراء لم يعد يغريك.. لكنه إنسان رائع..

كتبت برقية أن علي ألا أفكر فى مسألة زواجها كثيراً.. كتبت لها خطاباً قلت فيه:

"مازلت صغيرة يا فتاتى.. وأعتقد أنك مازلت جميلة مثلما كنت قبل أن تسافرى.. ومن حقك أن تعيشى بقية حياتك فى كنف رجل آخر يخاف عليك ويدفىء فراشك".

ردت فى خطاب آخر: "ابنى يدفىء فراشى".

حدثتها فى الهاتف:

– أيتها الملعونة.. أنت تعرفين أن أسرتنا تميل إلى الاستقرار، والزواج هو الاستقرار. ابنك سيدفىء فراش زوجته.. هاك عريسك يود محادثتك.

قال الرجل بعد أن أنتهى من محادثتها:

– اتفقنا على أشياء كثيرة.. لقد تذكرتنى.. لكنها لن تحضر..

قالت زوجة ابنى:

– دائماً صلبة الرأى!

قال عريس ابنتى:

– سأرحل إليها.. أقنعتنى بذلك.

– ومشاريعك هنا وأعمالك؟

– سأنقلها إلى هناك..

لقد تغيرت الدنيا. أناس كثيرون يأتون من وراء البحار لإقامة مشاريع فى بلادنا، واليوم ينقل أحدنا أعماله إلى ما وراء البحار.. هل هو الحب؟ لا أعتقد.

– ابنتك إنسانة ظريفة..

– اعذرنى.. يبدو أنك لست فى كامل قواك.. كنت أتصور أنك ستجعلنى أراها مرة أخرى تعيش بيننا.. لكن أعتقد أن كل من يذهب وراء البحار لا يعود..

– لماذا لا أرحل إليها..؟ الحياة هناك جميلة.

– والحياة هنا ليست قبيحة.. إنها أكثر جمالاً.. وسط أهلك وأهل زوجتك.. من أسباب موافقتى على زواجها بك أنك ستقنعها بالعودة.

– لكنها متعلقة بأشياء كثيرة هناك..

لم تعجبنى استكانته بسرعة لابنتى.. يود أن يبيع ممتلكاته.. والتصرف فى تجارته والسفر هناك.. لا يمكننى أن أعزو ذلك إلى حب قديم استيقظ ثانياً فى داخله. فهو من الذين يقيمون الأشياء بعقولهم.. ولا لطموح استبد بأبى يوماً أن نحقق ثروة من خلال جميع أفراد الأسرة بالسفر إلى بلاد يقال إنها مليئة بالثروات.. قال:

– كما بدأت هنا من الصفر يمكننى أن أفعل ذلك هناك.

– أعطنى سبباً واحداً لهذا الاستسلام الغريب.

– النقود.. هى شىء جميل فى نظر الكثيرين.. لكنها لا تغرينى كثيراً. سأذهب هناك ربما أجد راحة أبحث عنها. قد لا أكون سعيداً، لكنها رغبة جامحة تدفعنى أن أرحل إلى هناك.

قالت زوجة ابنى إن النوع الغريب من الرجال يندفع دائماً وراء امرأة ترفضه وتعامله بكبرياء، وإنما فهمت من حديثه معها أنه يسعى لأشياء ليست فى يده حتى إذا ملكها زهدها.. تلك هى المشكلة..

لم أستطع أن أحدثه أننى لا أوافق على الاقتران بابنتى.. كأنما يتصلان ببعضهما واتفقا على كل شىء.. بدأ يبيع العديد من الأشياء التى

يمتلكها.. وهب أشياء أخرى للأعمال الخيرية.. أعد أوراق سفره.. اشترى هدايا تذكارية.. عندما ركب السفينة أخذ معه العديد من الحقائب.. إنه حول الكثير من الثروات التى معه إلى بنك يتبع فرعه الرئيسى فيما وراء البحار.

قلت لابنى:

- إنها وسيلة للنصب والاحتيال.

قال:

- من الواجب عقد القران قبل السفر.. أعتقد أنه سيطلق المرأة بعد عدة أشهر من زواجهما.. وسنصاب بصدمة..

قالت ابنتى من خلال الهاتف:

- لم تصل السفينة بعد.. لست بالغباء الذى تصورتنى به. سأحبه وسأعطيه الحنان وسأعلمه أشياء كثيرة لم يعتد عليها..

قلت ضاحكاً:

- لو أننى أعرف جاذبيتك الشديدة للرجال إلى هذا الحد لزوجتك هنا لأعظم ملوك الأرض ولجئت به ليحكم العالم من مدينتنا.. ولحققنا الثروة التى كنا نبتغيها..

ردت:

- لا تيأس يا أبت.. الحياة مراحل والثروة ستصل يوماً.. كنا يوما نمتلك الكثير.. ونأمل اليوم أن نحقق الكثير.. بدأ عود ابنى يشتد وسيعمل..

سنزوجه بعد سنوات.. ربما أتمكن من الحمل قريباً وسأنجب أطفالاً أذكياء.. أتعرف يا أبت ماذا يعتريني الآن..؟ أتمنى أن أحمل مائة مرة.. في كل مرة ألد ثلاثة توائم.. لأملأ المدينة بأبناء أسوياء.. وأرسل بعضهم إليكم وتتولون تربيتهم..

قالت بعد أسبوع من وصول زوجها:

– عقدنا القران فور أن وصل.. إنه رجل رائع يا أبت.. سوف ألد منه الكثير من الأولاد أنت تعرف أنني قد تجاوزت الاربعين بعامين.. والحمل متعب في هذا السن.. أتعرف ماذا فعل في أول ليلة؟.. قال إنه يريد أن يعيش بلا أبناء أو بنات.. ولكنه كان رائعاً.. سأرسل لكم قريبا بشرى أنني حامل.

في رسالتها الثالثة والعشرين بعد زواجها قالت أنها رزقت بفتاة جميلة مثل أمها.. أصبح لابنها أختا رائعة سوف يكون لها تأثير شديد على قلوب الرجال.. قرر زوجها فور أن ولدت أن يعد مشروعا جديدا لإنجاب جيل آخر..

حدثتها في الهاتف عندما اتصلت بي أن عليها ألا تفكر في إنجاب الأطفال، عليها أن تحتفظ بزوجها، وأن يسعى الجميع إلى تأمين مستقبل الطفلة.. قلت إن أخاها قد رزق بمولود، وأن علينا أن نسعى إلى تأمين مستقبله.

بدأت المرأة وزوجها يعيدان الكثير مما افتقداه في الحادث الرهيب الذي أصاب المدينة. بنيا معاً منزلاً صغيراً.. اشتريا الكثير من الأراضي

الزراعية وبدأ يقوم بزراعتها.. فى فترة قصيرة استطاع أن يحقق الكثير.. بدأت الأسرة تتحدث من جديد عن ثروة يمكن أن تسعى ابنتى إلى تحقيقها خلال السنوات القليلة القادمة.

جلست يوماً فى غرفة أبى وتحدثنا معاً.. ذكرتنى بأيام كان أبى أكثر الآدميين حماساً إلى تحقيق ثروة.. مازلنا بعد هذا العمر الطويل نسكن نفس الشقة.. نفس الأثاث الذى كنت به عريساً هو الذى أنام عليه.. وأنت تنام فى الغرفة المجاورة فى سرير زوجتك.. وابنك فى الغرفة التى كنا نخصصها للزائرين.. لم تتغير الأشياء كثيراً..

– سوف تظل ترسل خطابات وبشر إلى ما وراء البحار.. كى نحقق أملاً نود جميعاً أن نحققه.

قلت لأبى:

– فى بعض الأحيان أتصور أننا سلالة من المجاذيب.. كلنا نؤمن بهذه الفكرة.. ولم يفقد أحدنا الأمل يوما فى تحقيقها.. وكلما اقتربنا من اليأس يشاء مصباح يبعث الأمل داخلنا.. فنعود لنصدقه.. حتى ابنى.. إنه أشد المتحمسين الآن لوصول الثروة بعد أن كان يسخر منا يوماً.. أتعرف ماذا قال حين باع سيارته وأرسل ثمنها إلى أخته.. يوما ما ستعود أختى ثرية.. وستحاول رد هذا الدين مضاعفا سترسل أكياساً من الذهب مع مبعوث خاص من وراء البحار بدلا من ذلك الشيك الذى فشلت يوما فى صرفه..

بالأمس فقط وصلتنى رسالة طويلة من ابنتى:

"بدأت الاشياء تعود إلى سابق عهدها.. الناس فى المدينة بدأوا يكتسون بنفس الملامح التى كانت تكسوهم فيما قبل.. يبتسمون نفس الابتسامات.. يتبادلون الهمسات.. العشاق يتناولون قبلاتهم فى الشوارع والميادين.. الباعة ينتشرون فى الأسواق. يبيعون فاكهة القرى المجاورة للمدينة بينما خضراوات مدينتنا لم نتذوقها منذ أمد طويل.. فتحت البنوك أبوابها. عادت البورصة للعمل.. ليس بنفس الحماس والاندفاع ولكن الأمل يراود الجميع.. أتعرف ماذا قال زوجى حين وضع أول مبلغ كبير فى بنك المدينة الذى افتتح فى الأسبوع الماضى: يوما ما سنرسل مبلغاً كبيراً إلى أسرتك.. لا تقلق يا أبت.. فإذا أمد الله فى عمرك ووهبك الصحة فسوف تصلكم الثروة يوما"

بعد الرحيل:

حلم غريب شاهدته قبل ان أرحل.. فى ليلة رحيلى شعرت بالاختناق يسد حلقى.. حملنى ابنى وأبناؤه إلى غرفتى.. أخذ يدلك قدمى وصدرى.. جاء الطبيب.. أعطانى حقنة.. طلب: دعوه يستريح. رأيت شيئا أشبه بالحلم.. رأيت صندوقا كبيراً يحلق فى السماء له جناحان أشبه بطائرة كبيرة.. لا أعرف إن كنت رأيت أخى بداخله أم رأيت جسدا آخر؟ إنه رجل فى الثانية والسبعين يرتدى ملابس ذهبية اللون.. على الجانب أكياس كثيرة مربوطة بأحبال ذهبية.. طار الصندوق بعيداً.. الطبيب لا يزال واقفاً مع ابنى فى الصالة يحدثه أنه لا أمل يرجى فى حياتى.. يبدو الصندوق

أكثر خفة من ريشة فى هواء عاصف.. شىء يخنقنى والصندوق يكاد أن يقع.. لكنه يطير بسرعة كبيرة.. قبل أن أغلق عينى تماماً رأيت لآخر مرة اللوحة التى شاهدتها عدداً من المرات لا أعرف كم.. "المال والبنون زينة الحياة الدنيا".

بعد أن أرقدونى فى مكان مظلم عاد ابنى إلى المنزل ليجد رسالة من أخته قالت فيها: "أبت.. سوف يتحقق الأمل فعلاً هذه المرة. لا تقلق.. اتخذنا كل الإجراءات.. كى نطمئن أن الثروة ستصل هذه المرة دون أية مشاكل.. أخبر كل من فى المنزل أن الأمل سوف يتحقق..

رواية الثروة

هذا الكتاب :

لو راجع كل منا حياته ، مهما كانت المرحلة العمرية فسوف يكتشف أن الانسان عبارة عن مجموعة من الانتظارات المركبة ، تتداخل في بعضها البعض، ولايمكن أن تنفصل في وحدات منفردة ، فأنت تنتظر النجاح، مع وصول رسالة مهمة، بالاضافة إلى مكالمة من حبيبتك ، أو سماع خبر في نشر الأخبار. أو حضور مباراة كرة قدم ، أو وصول مبالغ من المال قد تصل أو تتأخر طويلا ، بالاضافة إلى ملايين الانتظارات الصغيرة .

هذه الرواية انتظر أبطالها وصول الثروة طوال أعمارهم ، واكتشفوا أنهم ينتظرون أشياء كثيرة سوف تأتي مع الثروة. منها السكن الأفضل ، والزواج، والرحيل إلى الشاطئ الآخر.

هذه أول رواية عربية تتحدث عن الانتظارات بمعانيها المتعددة ، وترى أننا بالفعل نقضي حياتنا داخل سرداب سرمدي من الانتظارات ... وأن الزمن يعني أن تنتظر داخل نفسك أو خارجها.